

## الباب السابع

في الطائفة الرابعة وهم علماء الفلسفة العالية

الذين درسوا علم النفس

الى هنا وصل علماء الطبيعة وقالوا لاطاقة لنا بما فوق ذلك فان هذا آخر ما وصلت اليه  
ابحاثنا ، ولو عرفنا علم من هم أرقى منا من علماء العلم الأعلى ما اقتصرنا على هذه المباحث  
فجاء قوم أرقى منهم عقلا وأسمى نظرا وقالوا نحن عرفنا ما عرفه عوام الناس وشعراؤهم  
وما استنتجهم رياضيوهم من القيلس في الجسم وما أدركه مشرحوهم وطبيعيوهم فلنبحث  
اذن نحن عما هو أرقى من هؤلاء ، ولا يصح لنا الوقوف عند هذا الحد وقد قال تعالى  
وفوق كل ذي علم عليم تنبيهاً لذوى العقول على الجد والبحث والتشمير في نظر الأشياء  
ولقد رأينا الأطباء لا يعرفون من الانسان الا أعضائه المفصلة وروحه الحيوانى وهو  
عبارة عن خلاصة الدم الحاملة للحرارة الحيوانية السارية في سائر الحواس وما هذه  
الحرارة الا كسراج يدار في جانب المنزل فتضى جوانبه وتخرج منه أضواء الى الخارج  
من منافذه فهكذا هذا الروح الحيوانى المنبث في أعصاب الحس وأعصاب الحركة  
الخارجة من الدماغ والنخاع الشوكى ، وهذا الروح هو الذى يعرفه الطبيب فاذا سد  
شريان أو وريد أو اقطع عرق أو وقف العضو عن العمل عالج للطبيب هذا العضو حتى  
يخلص الروح ما لحيوانى اليه .

أما ما فوق ذلك من عالم النفس الذى هو أرقى من الضياء فهو من عالم فوق  
عالمنا وفوق قدرة الطبيب ، ولا يمكن معرفة بعض ظواهره إلا بمزاولة الطبيعيات  
والرياضيات ، وقد قدمنا في كتابنا هذا وسائر كتبنا ما يكفي الذكى ان يدخل معنا  
في عاب البحث في هذا العلم

وقد قدمنا في آخر التشریح قريبا أن للبصر أدرك الأضواء وبها ميز الألوان بعضها عن بعض والأشكال والصور والجمال والتناسب وقد كبرت العين وتعاضمت أن تتنازل الى الهواء فتبصر بواسطته وتشاخصت عن المادة وارتفعت الى ما هو متوسط بين المادة والمجردات

أما العقل الذي يستخدم تلك الحواس ويدرك بواسطه الجزئيات الآتية اليه كليات كأن الكل مثلا أعظم من الجزء من مبادئ الهندسة ومبادئ معرفة ما لا يدخل للانسان في خلقه والتميز بين الحسن والقبيح من أفعال الانسان وهي الحكمة العملية فذلك لا يجوز أن يكون مدركا بلا شيء مشرق عليه مما يناسبه

وكما ان العين مع سحتها لا تدرك الا باسراق أنوار عليها من الكواكب البعيدة عنا المرتفعة جدا فهكذا عقولنا التي هي أرق من أبصارنا لا تدرك إلا باسراق نور عليها من عالم لا يجوز أن يكون جسما والا لكان هو أخس من العين ولا متوسطا بين الجسماني وغيره والا لكان مساويا للعين وقد علمناه أرق منها مكانا ومكانة واحاطة ومعلومات فاذن ادراكه انما يكون باسراق نور من مجردات عن المادة لانها بحواسنا وانما عرفناها بعقولنا، وكما أن البصر لا يدرك الا اذا كان صحيحا فهكذا العقل لا يدرك الا اذا سلم من الآفات وكما أن البصر لا يدرك بنفسه وانما يدرك بواسطة نور يأتي له من عالم أعلى وهي الكواكب فكذلك العقل لا يدرك وان كان صحيحا الا باسراق عليه مما يناسبه

وكما أن البصر يدرك النور بنفسه ويدرك بواسطته الأشياء ويدرك مشرق النور وهي الكواكب ولا يدرك ذلك كله حاسة أخرى مما هي تحت العين فهكذا العقل يدرك الأشياء بواسطة اشراق يناسبه من موجود ليس بحسب فيدرك ذلك النور ومبدأه ولا يقدر على ذلك غيره مما هو أسفل منه طبعا وهو البصر وغيره وكما أن الأضواء الآتية من الكواكب بعيدة عنا جدا مرتفعة مكانا فكذلك الموجود الذي لا نراه

الذى يشرق النور على العقل الذى ليس له مكان أعلى فى الرتبة والشرف من العقل  
بما لا نهاية له

وكما ان العين مع صحتها واحاطة النور بها قد لا تبصر لما نفع صرفها عن ذلك  
كاطباق الجفن فهكذا العقل قد يحجب عن التعقل والتبحر فى العلم بانصرافه الى جهة  
الأغذية والمآكل والملابس والعداوة مع الناس وموالاة الأصدقاء، ومعاداة الأعداء  
والى ذلك تشير الحكمة الاسلامية

( لولا ان الشياطين يحومون حول قلوب بنى آدم لنظروا فى ملكوت السموات  
والأرض ) وكما ان مشرق النور وهى الكواكب لا يعرف منها لشدة بعدها الاظواهر  
قليلة لا تعرف حقائقها ، بل نرى أكثرها قدر بيضة مع انها قد تكون أكبر من  
الشمس فكذلك من أشرق نوره وهو مبدع هذا الكون على نفوسنا لا نعرف عنه  
الا ما يصل من نعمه لنا نظير ضوء الكواكب ولا نعرف من صفاته الامتداد ما عرفنا  
من جرم الكواكب وكما ان فينا قوما نظروا بالمنظار المعظم فعرفوا كثيرا من ظواهر  
الكواكب وآخرين بالبرهان علموا ابعادها وأقذارها واقطارها فكذلك العلماء من  
جملة الناس قد يبحثون بالعقل تارة وبصفاء الفكر أخرى فيتجلى لهم كثير من العلم  
بصفات من أشرق نوره على النفوس وهو مبدع هذه الكائنات ، ومن هذا نعلم  
كيف أقسم بمواقع النجوم على مدح القرآن وما المناسبة بينهما فقال ( فَلَا أُقْسِمُ  
بمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ  
مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ )

فتأمل كيف أقسم بمواقع النجوم ثم أعظم هذا القسم وأكبره جداً وأشار الى  
جهل أغلب الناس به فقال لو تعلمون وذكر المقسم به وهو مدح القرآن وأشار الى انه  
فى كتاب مكنون اشارة الى بعد مناله كما بعدت الكواكب وكل هذا لما بين العلم  
ومصدره والكواكب وأنوارها من المشاكلة ، وأما النور فنظير قرآن كريم ، وأما

مصدره فنظير تنزيل من رب العالمين لأنه هو معلم العلم ومزيل الكتاب كما ان الكواكب مشرق النور

ومن هذا التقرير تعلم كيف يتصور أن يكون موجود ليس بجسم وانه أرفع وأجل من النور وأبهى وأبهر وانه محيط بكل شيء واذا رأيت أن النور أكثر احاطة بالأشياء فلا بد أن يكون ما فوقه أكثر احاطة بما يعجز النور عنه وتعلم كيف مثل ذلك بقوله — الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح — الآية ولستأثني بهذه الآيات مقلدين وانما هي البراهين والحجج العقلية التي تراها بعقولنا كما نسمعها من الشرع ليتحد النقل والعقل واعلم أن العقل هو الغذاء والنقل هو الدواء كما ذكره الغزالي في احياء علوم الدين

هذا واعلمك شاقك ما سمعته الآن الى معرفة ما هي النفس وما صفاتها وما الذي تحسه وكيف تحس فهناك البيان فنقول :

اعلم أن النفوس ذلت لها هذه الكائنات وكأننا اذا دققنا النظر لم نجد حولنا الا شيئين خادما ومخدوما فالخدوم هي النفس والخادم هي المادة ولا ريب ان كليهما لم تظهر اقط وانما الظاهر صفاتهم ما فقد أجمع حكماء العصر والأقدمون ان المادة لم يمكن ظهورها الا لصورها المختلفة كما أثبتته القدماء . وهكذا مذهب لابلاس الذي اعتبرها كرة غازية تنوعت الى آخرة : وما أشبه المادة الا بغادة حازت جميع المحاسن التي يتصور وجودها في العقل ثم وقفت أمام النفوس بحلها وحلاها ( والنفوس لم تظهر الا بصفاتها كالمادة فظواهر كل منها تجلت لظواهر الأخرى ) وحياتها وبهاها ونرى النفوس كالعشاق والمادة كالمشوق فتتمتع بجميع ما فيها من المحاسن واللطائف بحواسها الخمس وتخزن منها ما راق وراق بصور في قواها الباطنة كما يستحضر العاشق صورة المشوق واليه الاشارة بقوله ( الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا ) وقال أيضا ( الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا ) ولذلك ترى أغصان الأشجار كأنما تمت يدها بالأزهار وتسلم على الناظرين اليها وتحبي القادمين عليها وكأن كل شيء يدعوك بلسان حاله ( خذ

ماتشاء)، (كلوا يمما في الأرض حلالا طيبا) وقد آن لنا أن نشرع في المحسوسات فانه أسهل ثم كيفية وصولها الى الحواس ثم الحواس الظاهرة ثم الباطنة فنقول :

## المحسوسات

اعلم ان الجسم جوهر طويل عريض عميق وهكذا النفس كالجسم ولكنه ليس لها أبعاد ثلاثة وهذا هو الفرق بينهما وانما هي جوهر ليس بمادة وهذا التعريف هو بعينه قولهم انه مركب من هيولى وصورة فالهيولى هي المادة أو الجوهر ومعنى الجوهر هو الموجود الذى ليس صفة في غيره كالبياض والحرة والصفرة وهكذا والصورة هي الابعاد الثلاثة والمادة يستحيل ظهورها إلا بالصورة فهي لم تعرف الا بالدليل إذ لم نر إلا الجسم واما المادة التي هي أحد جزئيه فلم تر قط . وإذا علمت ان الجسم ماذ كر فجميع مازاد عن الامتدادات الثلاث فهي صور متممة وهي صفات كثيرة وكل جملة منها تختص بحاسة من حواس النفس الانسانية فالحواس خمس اللمس والذوق والشم والسمع والبصر وصفات للمادة ست وثلاثون صفة فعشرة منها لحاسة اللمس وهي الثقل والخفة واللين والصلابة والملاسة والخشونة والرطوبة واليبوسة والحرارة والبرودة فهي انما تدركها القوة اللامسة بملاصقتها لها وهذه الصفات للجسم لامن حيث هو جسم وانما هي عوارض حدثت له من أحوال عارضة والثقل والخفة لاندماج المادة وانجذابها نحو الأرض مع قربها في الأول وعدم اندماجها وتخالجها أو بعدها عن مركز الجاذبية في الثانى وهكذا بقيتها فالرطوبة لقلّة المواذ السائلة عليها واليبوسة بالضد والخشونة لوجود نتوات كثيرة في سطحها والعكس بالعكس و بقيتها ظاهرة وقوة اللمس تدرك هذه العشرة من صفات المادة بملاستها

## المذوقات

وللأجسام سبع صفات أخرى وهي الحلاوة والمرارة والملوحة والندسومة والحموضة والحرافة والعدوبة والقبض والنفووضة كالعسل والحنظل والملح والزيت والابن الحامض والفلفل والماء والليمون والعفص فهذه التسعة لواحق للمادة ومحاسن قدمتها هدية إلى حاسة الذوق .

ومن العجيب ان هذه الطعوم التسعة إنما تكون في خلاصة المواد لا كالمموسات التي كانت صفات لجميع المواد فتأمل كيف كانت خلاصة المادة هدية للذوق الذي جعل في الفم وهي أرقى من الملموسات فكانت الخلاصة للأعلى

## المشمومات

وكثير من التباينات والمواد الأخرى تخرج منها أجزاء لطيفة تخرج بالهواء فيتكيف بها فيصل الى قوة الشم في الأنف وتصل إلى الدماغ فيحس بريحها وينقسم إلى محبوب ومكروه ، فتأمل كيف كانت حاسة الشم في الوضع أعلى من سابقتيها ولها الشرف من حيث لطف ماتستعمله . ألا ترى أنه لا يأتي لها إلا مواد لطيفة في الهواء سائرة إليها فقد استخدمت الهواء لتتال مشتمهاها أما سابقتها فأنها ما تباشران نفس المادة بدون توسط الهواء ولعمري انه لوضع عجيب

## المسموعات

وإلى هنا عرفنا صفات المادة الأحد والعشرين الموزعة على تلك الحواس الثلاثة ولا جرم أنها كلها غليظة لم تصل إلى اللطف التام وبقى للمادة بهجة أرقى مما ذكر وهي الأصوات الناشئة من اصطكاك بعضها ببعض ولعمري ان هذه الصفة وحدها تكاد تعبر عن محاسن المادة وتعرب عما استكن فيها من الجمال ولما ضعفت أن تؤدي ما فيها من المحاسن وتظهر ما استكن فيها من الجمال لضيق نطاق الصور اذ لاتسع صورتين في

أن واحد مع انها مستعدة لصور لانهاية لها ولذلك تراها تلبس صورة وتخلع أخرى فعبّر عن تلك المحاسن والاستعدادات بالنفحات الموزونات المتتابعات لتقوم مقام الصور الكثيرة في الأزمان المتباعدة وسرت تلك الأصوات في أرق جزء من الأجسام وهو الهواء اللطيف فأتى إلى الأسماع فطربت النفس وصفت ، ولمعرك ان النفس وقد سممت الألحان لأشبهه شئ ، بمن عشق فسمع كلام معشوق .

وترى ان النفحات كلما كانت أكثر وزناً وأحسن وقعاً زادت قبولا وبهجة وحسناً عند النفس لما كلفتها وزن الصور وتناسقها .

والأصوات اما حيوانية أو غير حيوانية وغير الحيوانية إما آلات كالطبول والأوتار وإما طبيعية كخرير النهر وصليل الحديد .

والحيوانية إما منطقية وإما غير منطقية الثانية أصوات الحيوانات والأولى أصوات الانسان وهي إما مفهومة أو غير مفهومة فالأولى كالاشعار ونحوها والثانية كالضحك والبيكاء فهذه خمسة

فانظر كيف كان الهواء اللطيف يحمل هذه الأصوات مع اختلافها وكثرتها ولا يختلط بعضها ببعض فيحمل صوت الأشجار وما حولها من الحشرات الصغيرة والحيوانات الكبيرة والانسان والنهر الجارى ويسمع الانسان هذا كله ويميزه إذ الهواء لطيف وبلطفه يسع هذا كله

وتأمل كيف تحفظ الأذن هذه الأصوات كلها وتميز بينها مع انها ليس لها لطف الهواء ، ولكن قد اكتشف الطب الجديد ان القوقعة التى هى وراء أعصاب الأذن فيها سائل داخله حبوب صغيرة تبلغ نحو ثلاثة آلاف كل منها متصل بعصب دقيق جداً اختص بسمع نوع من الاصوات فقد قامت كثرة الأعصاب فى الجسم الكثيف مقام لطف اللطيف (إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) فعلم كثافة الجسم ففرق الصوت على الأعصاب لا كالهواء الذى هو لطيف محيط بالأرض صالح لحمل المختلفات فتراه محيطاً بالقائلين والسامعين على الدوام . وههنا يجب

تذكر النعم الواصلة من الرب لعباده فالهواء لا نستغني لحظة عنه لئذا، أجسامنا بتلطيف  
الدم اذ لسنا في تلطيف دمنا أحوج منا اليه في كلامنا وتوصيل أخبارنا والتواصل فيما  
بيننا مع ما فيه من نقل الروائح اليها لتعرف الضار والنافع ، فما أقصر عقول كثير من  
نوع الانسان لا يحمدون الله على مثل هذا وإنما يحمدونه على المال والغنى أما المبتدول  
لنا في كل آن مع شدة حاجتنا اليه فلا نذكره به ولا نعهده نعمة وهذه معنى قوله  
( قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ) ، ( إِنَّ الْإِنْسَانَ لَطَلُومٌ كَفَّارٌ ) نعم هذا هو كفر النعم

## المبصرات

أما المبصرات فهي عشرة : الأنوار والظلمات والألوان والسطوح والأجسام  
والأشكال والابعاد والأوضاع والحركات والسكنات فالظلمة ترى ولا يرى فيها غيرها  
بل هي كالحجاب أما النور فيرى وترى به الألوان وبها تظهر السطوح وهي لا تقوم  
الا بالأجسام فتظهر تبعاً لمصفااتها والجسم لا بد له من شكل فتظهر الاشكال فالابعاد  
فالأوضاع فالحركات والسكنات والحامل لهذه العشرة هو الضوء المشرق من  
الكواكب السارى في العوالم كلها الداخلة في العيون الزجاجية المناسبة له كل المناسبة  
الموضوعة بترتيب يناسب نوايس الضوء فتجتمع الصور على الشبكية ثم تذهب الى  
المنخ مع أخواتها السابقة فيحكم بين جميعها وهو من لطاف الحاكمين

واعلم أن تقسيم الأجسام الى مضيئة ومظلمة خطأ وإنما هي مظلم وهو ماله ظل  
كالأرض ومضىء كالشمس وهو مالا ظل له يعطى الضوء لغيره وشفاف وهو مالا  
يجب الضوء وإنما يسرى فيه ويفيض على ما بعده ومنه عين الانسان والزجاج وبعض  
الأحجار الكريمة والماء والهواء وجسم الأثير الذي تسبح فيه اجرام الافلاك

واعلم ان الألوان بعضها حقيقى وبعضها غير حقيقى فالأول ألوان الزرع مثلاً ،  
والثانى كخضرة الهواء وزرقة الماء العميق وهذا رحمة من الله ولطف بالحيوان اذ يحتاج

في تصرفه الى نظر نحو السماء حين يبحث عن الأغذية والى النبات وهو يرعاه فاقتضت الحكمة الالهية تلك الخضرة وأختها الزرقة في الأرض وفي السماء لشدة مناسبتها للعيون (إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ) فهذه حكمة تحار فيها نفوس العقلاء ويخر العقل ساجدا ويقوم كيف جعل في الأجسام الشفافة ناهوس علم فيها وهو الزرقة في عمقها المتباعد ، وكيف كانت بهجته بهجة الحيوان وحسن منظره ، وأن هذه الظواهر حكم وراءها جمال وبهاء وحسن أعلى وأشرف وأبهج (تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبَأَى حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ تُؤْمِنُونَ) بهذا يفرح الأذكىاء المجدون ويفر فرار جعل من ربح الورد الجاهلون . فاللحوسات عشرة والمذوقات تسعة والمشمومات اثنان والمسموعات خمسة والبصرات عشرة فاجميع ستة وثلاثون وأغلب هذه تسمى الكيفيات المحسوسة وقد دخل معها الوضع وهو ما يرى من الترتيب ونظام العسكر وطرق البساتين ونظام المنازل والأشجار وكل حسن وبهاء وهو الجزء المهم من علم تمييز الجمال

ثم ان الكيفيات المحسوسات قد تكون راسخة كحلاوة العسل وملوحة ماء البحر وتسمى انفعاليات وان كانت غير راسخة كحمرة الخجل وصفرة الوجل تسمى انفعالات هذا في غير الأنفس فان كانت الصفات الراسخة في الأنفس سميت ملكة لجمع المتدربين على العلوم واللغات وان لم ترسخ سميت حلا

وبعض الأجسام فيه صلابة بها يدفع الورد عليه كالحديد ويسمى هذا الاستعداد قوة وبعضها فيه ضعف عند ورود خارج عليه ويسمى ضعفا كالماء والسوائل كلها فعلم لك من هذا الكيفيات كلها ومعها الوضع والكم المتصل الذي هو الأبعاد الثلاثة ، وهناك كم منفصل قار وهو الأعداد وفروع علوم الرياضة الحسابية كلها تبحث عنه كما يبحث عن الكم المتصل وهو أبعاد الجسم الثلاثة فن الهندسة وفروعها وكما يبحث الفلك عن الكم المنفصل الذي ليس بقار وهو الزمان وكما يبحث في الطبيعيات كلها عن جميع الجواهر ويلاحظ في علم التاريخ المتى وفي الجغرافيا الابن وفي علم تمييز الجمال الوضع وفي الصنائع كلها والحروب والتعاليم الفعل ، وفي المواد السائلة

والمسبوكات والمصنوعات والمتعلمين والمحكومين الانفعال وفي الاحاطات كلها كاحاطة  
التياب بالأجسام والماء بالأرض والهواء بهما مقولة الملك وفي علوم الانسان ومعرفة  
منازل الناس ونسب العلويات الى السفليات والظائف الى الكثائف والاسراع الى  
البطء وهكذا تلاحظ النسبة

فهذه عشر مقولات وهي الجوهر والكيف والكم والاضافة والفعل والانفعال  
والتي والايين والملك والوضع وانما قصد الفلاسفة بها معرفة هذه المادة وصفاتها بطريق  
المحصر الوجودى وانما تتعلق الحواس بالكيفيات المحسوسات وقد يتبعها غيرها  
واذ فرغنا من الكلام على صفات المادة فلنشرع الآن في كيفية وصولها الى حواسنا  
ولنشرح أعمال الباصرة فنقول :

علمت ان الصفات التى تحس عشرة فيظهر الجسم المرئى بشكله وابعاده الثلاثة ،  
ومن العجيب أن الضوء يحمل هذه الصور والأشكال مجردة عن مادتها فيتكيف بها  
بدل موادها فتراه يحمل جميع مواد صور ما نراه . وياليت شعرى كيف يتكيف  
الضوء بما لا يعد من الصور المزدحمة فيه ويوصلها الى الابصار ولكن لا عجب فى ذلك  
فان الهواء الذى هو أقل منه لطفاً يحمل ما لا يحصى من الأصوات المختلفة ويميزها  
فكيف به هو وهو أرق وألطف وأعجب ولذلك تراه اختص بالصور نفسها

أما الهواء فلم يأت الا بالحروف المعبرة عن تلك الصور ففرق بينهما فالضوء  
كالآلات الفوتوغرافية والهواء كالفونجراف فالأول مظهر لصور الأشياء والثانى معبر  
عنها بألفاظ والضوء يقرب فعله من فعل المحيطة التى تزدحم الصور فيها ولا يختلط بعضها  
ببعض فتأمل كيف كان الشئ ككمارق واطف كان أوضح فى فعله وأشرف وكلما  
قرب من الغلظ ضعف إيضاحه ووضوحه فالهواء حمل الأصوات وهى بلا ريب أضعف  
تعبيراً عن الأجسام من صورها المنقولة بنفسها فى الضوء داخله فى العين مرسومة  
فى الدماغ فتدركها النفس

ولعمري كم من الفرق بين من يعبر عن الشئ وهو الهواء وبين من يحضره بنفسه

وهو الضياء ، ولعلك من هذا تعلم كيف تكون حال ما هو أرقى من هذا وهي عقولنا  
وتقوسنا ومن هو أظف منها وهو مبدع الكون وملائكته ( لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ  
وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ الْأَطِيفُ الْخَبِيرُ . وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كَرَامًا كَاتِبِينَ  
يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ )

ولقد علمت من هذا ان العائق عن الوضوح هي كثافة الأجسام فالقوة اللامسة  
والذائقة لا تدركان الا المجاور لها فتتكيفان بكيفيته ولا تشعران بها وتنقل في الاعصاب  
حتى يحس بها المخ وأرقى منهما الشامة

وقد علمت فعل السمع والبصر وهو انما يدرك بواسطة الضوء الذي ليس يحس  
فكيف عقولنا وكيف من يعلو عليها فان هذه ليست بأجسام إذ لم تبق مرتبة بعد  
الضوء إلا وجود مجرد عن المادة واسع الاحاطة ومنه نفهم معنى القدوس والمنزه وكيف  
أحاط بالكانات علماً إذ الذي علمناه بالشاهدة أن المادة هي العائقة فاذا لم تكن مادة  
حضر كل معلوم لم يعقه عائق ثم تصور هذا صعب علينا جداً مادامت في جلايب المواد  
فاذا تخيلنا منها كنا أقرب الى العلم بذلك

ثم اننا اخترنا في الأبصار مذهب علماء الطبيعة وهو أنه بالانطباع كما أوضحناه  
لامذهب الرياضيين إذ قاتوا أنه بالشعاع الخارج على هيئة مخروط قاعدته على الجسم  
المرئي وقته في العين الباصرة ولم في ذلك آراء كثيرة فلا ثمرة في الاطالة  
بذكرها والانطباع الذي اخترناه مذهب ارسطو والشيخ الرئيس ابن سينا وفلاسفة  
الاسلام وقالوا إن مقابلة البصرات للباصرة تفيد استعداداً لتفويض به صورته على  
الجليدية ولا يمكن في الانطباع في الجليدية وإلا لرأى شيئاً واحداً شيئين لانطباع  
صورته في جليدتي العينين وإذن لا بد من تأدي الصورة من الجليدية الى الملتقى ومنه  
إلى الحس المشترك ولم يريدوا من تأدي الصورة من الجليدية الى الملتقى ومنه الى الحس  
المشترك انتقال العرض الذي هو الصورة إذ لا ينتقل العرض وانما أرادوا أن انطباعها  
في الجليدية معد لفيضاتها على الملتقى وهو معد لفيضاتها على الحس المشترك كما كان

الضوء بين الجسم والعين معدداً أيضاً وقس على سير الضوء سائر المحسوسات بالحواس الحس في الأعصاب حتى تحس بها النفس فهى أشبه بالكهرباء أو الذر تسرى من جزء الى جزء وليس المعنى أن ما كان في الجزء الأول انتقل الى التانى بل هى استعدادات حاصلة بالمجاورة وهكذا شأن عالم اللطائف الذى منه التعليم فعمل المعلم لم ينتقل عنه إلى التلميذ وإنما تعليمه جعل في المتعلم استعدادا لقبول فيضان الصورة التى عند المعلم نظيرها

### الحس المشترك

فاذا شعرت النفس بهذه المحسوسات الحس كلها اجتمعت في قوة واحدة لا يهمنى مكانها وإنما يهمنى فعلها تسمى الحس المشترك يزعم الأقدمون انها في مقدم الدماغ وماهى إلا كرئيس أرسل رسلا ووكل كلا بجهة من أطراف بلاده ليأتى بأخبارهم حتى إذا اجتمعت عنده الأخبار رصدها في دفاتر الوارد ثم أودعها مخازنه حتى إذا حضر الحاكم الأكبر فيها فصل في قضاياها وتوضيحه ان كل حاسة لها عالم يخصها . فالعين الألوان وللأذن الأصوات وللشم المسمومات ولللم المذوقات وللحس الملموسات

فاذا أبصرنا سرايا وسط النهار رأيناها أبيض كالماء فهذه الحاسة أدت وظيفتها وهى رؤية اللون والحس المشترك يودعها في الخيالة — وهى ترفعها إلى العقل فان حكم بأنه ماء فقد ضل لأنه لا يجوز له الحكم إلا إذا شهدت حاسة أخرى وهى الذوق هنا حينذاك يحكم بأنه ماء ، وهكذا إذا نظرنا هيئة رمانة صناعية فلا نحكم بأنها رمانة حقيقية إلا باستعمال حاسة أخرى كالذوق حتى نحكم بذلك . ثم ان تكرار المشاهدة بحاستين شيئا واحداً مراراً يوجب الاستغناء باحدهما عن الأخرى ، فاذا رأى أى حيوان نباتاً وأكل منه فوجد طعمه لذيذاً ثم نظره كرة أخرى فلولا الحس المشترك الذى اجتمع فيه الذوق والمنظر لما عرف الحيوان ان هذا الأخضر هو اللذيذ بعينه .

فمن رحمته تعالى أن خلق هذه القوة الرئيسية تجتمع الأخبار عندها بهيئة غريبة ويتصرف الانسان والحيوان في شؤونها باعانتها .

فالحواس الخمس كأنها خمسة أنهر في حوض واحد فهذا الحوض مخدوم وهي خادمة فهو أجل منها قدرًا إذ المخدوم أشرف من الخادم والعالم بخمس فنون أفضل من العالم بن واحد على ان الحواس لا علم لها وإنما هي موصلات لصاحب الحس كما علمت من قبل فهو العالم وحده ثم هذه الصور تخزن في الخيال

### المخيلة أو المصورة

أفعالها عجيبة فأنها تخزن فيها الصور إلى وقت الحاجة من كل ما أحس به الإنسان ومن العجيب أنك كلما أحسست به تراه بشكله بعينه مجسمًا واضحًا فيها ، فإذا أبصرت قصرًا منيفًا أو نهراً جارياً أو بستانًا زاهرًا وأغمضت عينيك رأيت واضحًا فيها ، وإنما الفرق بينه وبين الحواس الظاهرة أنها لا تشهد إلا بعلاقة بينها وبين المحسوسات فاذ انقطعت العلائق كالهواء والضوء بأن ضمت الأجنان أو سدت الأذان فلا إبصار ولا سمع ، أما هذه القوة فأنها تشاهد ما فيها بوضوح بشرط قطع العلائق ولكن الصفات بدلت بأمثالها قطعًا إذ خضرة البستان في الخيال ليست هي التي في النبات وإنما هي مثلها وعلى صورتها ومن نوعها فقط فهذا فيه نوع الصفات لاهي

قباليت شعري كيف تسع هذه القوة علم السموات والأرض وصوره المختلفة المجتمعة فيها وكيف يوضع الكبير في الصغير

قد أجمع الحكماء على عدم تدخل الأجسام فلو كانت هذه القوة جسمًا فكيف تسع هذه الأجسام كلها . ينسى الإنسان الشيء مدة طويلة حتى إذا أراد أن يتذكره كرة أخرى أحضره من هذه المخيلة ولولا حضوره عنده ما تذكره فهذه القوة :

(١) قبل الصور عن الحس المشترك

(٢) تحفظها عندها لوقت ميسر الحاجة اليها

(٣) تحلل وتركب مادامت الحواس مستغلة بالعالم الخارجي فهي ترمم ما يرد عليها

فلذا ركبت الحواس أخذت الخيلة في النظر فيما عنده من الصور فتحلل تارة وتركب

أخرى اما صدقا واما كذبا فان كان تخيلها لقصد صحيح كتخيل النجارين وعلماء البلاغة باختراع صور جميلة في هذين الفنين وكاختراع المصورين والنقاشين وهكذا جميع علماء الفنون الجميلة فهذا تخيل صحيح وهو منشأ الاختراعات وازوايات والتأليف والصناعات وذلك يكون تحت اشارة القوة المفكرة فان أطلقت المفكرة لها العنان أخذت تحلل وتركب كالهازلين والمخرفين فتأتى بصورة انسان عليه رأس حمل أو بالعكس

(٤) ثم هي كما تحلل وتركب تضرب الأمثال وبيانه انها تصور الشيء بصورته تارة وتمثله بصورة غيره تارة أخرى ولذلك نرى النائم يتخيل أخاه في صورة صديقه والعدو في صورة الصديق وبالعكس .

هذه أعمال القوة الخيالة في الصور المخزونة عندها

- (١) ولا تقتصر على ذلك بل تمثل مزاج الانسان وأخلاقه ومعقولاته
- (٢) فاذا كان المزاج حاراً فربما يتخيل النائم انه في الشمس قرب نار . وتأتى بالمعقول في صورة المحسوس الذى اعتادت عليه فلا تترك شيئاً من المحسوسات أو المعقولات إلا وترجمها إليه
- (٣) وتمثل الأخلاق فيرى الغضوب انه ينازع الأقران والشهوانى انه يتصرف في شهواته والكريم انه يفرق الأموال .

فانظر كيف ضربت مثل هذه الصفات المعقولة بالجزئيات المحسوسة

- (٤) وتمثل المعقول ألا ترى ان العلم يؤتى به في صورة اللبن . والكليات في صورة الجزئيات كما إذا تصورنا الرحم وهى الأمر المعقول (القرابة) بصورة انسان يطالب بصلته بين يدي ملك . فهذه تمثل الأمر المعقول بين الناس المستلزم للتعاطف والمودة . هذه هى أعمالها في التمثيل وهى أربعة كما رأيت

- (٥) ومن صفات الخيالة انها سريعة الحركة فتخرج من الكل إلى الجزئى وبالعكس ومن الكل إلى الجزء ومن الصديق إلى العدو وبالعكس رحمة من الله بعباده لينذروا

مانسوه فيخرج الانسان من صديقه إلى صديق آخر ثم يذكر منزل ذلك الصديق  
وينتقل إلى جاره ويذكر قضية له ومنها إلى القاضى ومنه إلى الحكومة ومنها إلى  
السياسة وهكذا فتكون الأفكار سلسلة واحدة أيا كانت متضادة أو متماثلة أو متجاوزة  
أو متناسبة ولولا هذه الحكمة العجيبة ما أمكن الانسان أن يكون مدنيا ولم يتذكر  
مانسيه ولم يعرف معاشه ( صُنِعَ اللهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ) فهذه خمسة أعمال اجمالا  
ثمانية تفضيلا المخيلة فأنت ترى من هذا البيان ان أعظم نعمة علينا هي هذه المخيلة  
ولو نظرت حق النظر لعلمت انها جمعت فيها كل شيء مع ان حقيقتها مجهولة بالكلية  
فياليت شعرى ما هذا الذى ليس معروفاً ثم يسع هذا العالم كله فترى المخيلة تسع  
السموات والأرض وما بينهما وتفصلها واحدة واحدة وان كنت في شك مما تلونا عليك  
فاغمض عينيك وفتش على الصور تجد ماراته عينك وما سمعته أذناك حاضراً فيها بصورة  
وأشكاله . فان كنت لا تتعجب من هذا فابك على نفسك وعالجها بالآداب والعلوم  
حتى ترتاض فتصل لادراكه فانه خفى مع ظهوره

هانحن أولاء تصور الكرة الأرضية والسماوية بطريقتين احداها بالكرات الصناعية  
المشاهدة فى المدارس والأخرى بالخرائط الجغرافية وكلاهما صور ناقصة فالكرة تكون  
صغيرة جداً عن الحقيقة والخرائط ليس فيها إلا ظل لاحقيقة له وهو مع ذلك صغير  
جداً ربما بلغ المقياس فيه واحداً من مليون .

أما هذه المخيلة التى ضل عنا محلها فكيف تسع السموات كلها بشكلها مع صغر  
جمجمة الرأس وهى شىء صغير جداً على أن جمجمة الرأس لاتسع شيئاً من ذلك كله  
إذ هى مملوءة مادة دهنية هى المخ وأعصاب موزعة فى الجسم وماء سائلا فلم يبق متسع  
لرسم نجم صغير فضلا عن السموات والأرض .

ولعلك أيها القارىء بان لك ان نفوسنا شىء غير مادة بالمره وعرفت انها عالم  
أوسع من عالم النور الذى ذكرناه لك سابقاً لأن المادة أمامنا قد عجزت كل العجز  
عن تحمل هذه الرسوم العظيمة بهذا البرهان الحسى الذى أقنناه فى هذا الزمن والعلوم  
راقية والأمثال مضروبة منها

ثم انظر كيف تدخل هذه الصور العظيمة من حدقة العين مع صغرها فلئن سلمنا هذا البرهان في الخيلة التي هي ظاهرة من ظواهر النفس فكيف بالحدقة التي هي من أعضاء البدن وما بالناس نراها تسع هذا كله وتدخله إلى الخيلة .

حارت الأفكار في قدرة هذا المبدع الحكيم . واني لأذكر لك المحاوره المشهوره بين ابليس وادريس التي ملأت كتب التوحيد وقولهم ان ابليس قال لادريس أيقدر ربنا أن يدخل الدنيا في قشرة بيضة فقال يقدر أن يدخلها في سم هذا الخياط وفقاً عينه بالابرة . وأجابوا عن هذا بقولهم ان هذا من المستحيل الذي لا تتعلق به القدرة وانما هو من عجز الممكن عن قبول الایجاد والا فالقدرة لا حصر فيها .

هذا ملخص ما أجابوا به . وأنت أيها الأرخ القارىء، لكتابتى هذا تأمل في السؤال وما يشير إليه الجواب فان هذه المسئلة من الأشياء المضروبة للناس أمثالا لعلمهم يتذكرون فلقد شاهدت أن الحدقة والخيلة قد وسعتا العلم كله بشككه وهيئته مجرداً عن المادة ( ان الله على كل شىء قدير ) إذ ليس المراد من العالم إلا خلاصته وشككه ولقد قالوا ان الله يقدر أن يدخله كله في قشرة البيضة بأن يكبر البيضة أو يصغر العالم وها أنت ذا شاهدت أن العين والخيلة بقيتا على حالهما ودخل فيهما العالم بحاله جملة واحدة فلا العالم صغر ولا محل الرسم كبر وانظر كيف قالوا في هذا المثال انه وفقاً عينه فتأمل كيف أشار الى ان العين هي نفس جواب السؤال كأنه يقول ان عينك ومخيلتك فيهما الجواب

هذا ما خطر بنفسى عند كتابة هذا الموضوع والذي انقذ في نفسى أنها ضرب أمثال للناس ثم تموتلت في السكتب على انها حقيقية مع أن أصل الواضع لم يرد به إلا تنبيه العقول والتأمل ويظهر أنه حصل فيها تحريف وتغيير وتبديل وفي نسبتها الى سيدنا إدريس دلالة على أنها قديمة الوضع من وضع بنى اسرائيل الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج وكثير النقل عن موضوعاتهم ورواياتهم في كتب المفسرين على أنها مواعظ يراد غاياتها لا حقائقها وهذا أمر يعلمه .

رسولنا صلى الله عليه وسلم ولكن شأن الأمثال إذا تداولت عليها الأيام ان يظن أنها حقائق .

ولعلك تقول لم لم توضح في كتب التوحيد قلنا أن العقول لا تحتل أن التخيل يقال له موجود وإنما يعرفه من ارتاض بالعلوم

هذه الصور المتخيلة يصدق عليها أنها موجودة وأنها معدومة وأنها متوسطة بين الموجودة والمعدومة إذ فيها إمارات الأحوال الثلاث فلعدم الجرم ربما يتوهم العدم ووجود الصورة يظن الوجود ولتعارضهما يقال لا موجود ولا معدوم . وما أقدر هذه القوة على الأعمال فانظر كيف لطفت الأجسام الكثيفة ووضعها في أعلى بعد وان كانت في أسفل واضاءتها بعد الاظلام في قوله تعالى ( انى رأيتُ أحدَ عشرَ كوكبًا والشمسَ والقمرَ رأيتَهُم لى ساجدين ) ثم أبرزت العقول في صورة المحسوس والعقول هو التعظيم والمحسوس هو السجود وكل ما ذكرناه في هذا المقام من عجائب الخيلة والى هنا قد ذكرنا قوى الحس المشترك والخيلة التى ذكرنا لها هذه الأعمال كلها ولها غير ذلك من الأعمال فهى تدرك المعانى الجزئية كالعداوة بين الذئب والشاة مثلا هذا ما يظهر من كلام أبى نصر الفارابى فى آراء أهل المدينة الفاضلة وكتاب اخوان الصفاء أما كلام غيرها من العلماء فانهم يجعلون القوى خمساً وهى الحس المشترك والتخيل وليس له وظيفة إلا حفظ الصور والواهمة ولها حفظ المعانى المدركات بين الصور والحافظة تحفظ المعانى الصادرة عما قبلها والمتصرفة تتصرف فى تلك الصور والمعانى فان اتبعت العقل فهى مفكرة أو الوهم فهى متخيلة هذا ونحن لا يهمنا كثرة الأسماء والألقاب وإنما المهم هو معرفة ما فيها من الغرائب وهما أنت ذا قد عرفت المذهبيين من باب الاحاطة فلندع الاصطلاحات جانباً ولنذكر القوة العاقلة

## القوة العاقلة

اعلم أن جميع ما ذكرنا من القوى الباطنة والحواس الحس الظاهرة خدم للقوة العاقلة فهي التي تستنتج من تلك الصور المخزونة والمعاني المدركة ومركباتها كليات معقولة تارة لتدبير البدن وهو العقل العملي وتارة لتكميل قوتها بالمعارف والعلوم وهو العقل النظري

قال الطوسي في شرح الاشارات ، فالعقل العملي هو إدراك كل مستنبط من مقدمات كلية أولية أو تجريبية أو ذائعة شائعة أو ظنية يحكم بها العقل النظري ويستعملها العقل العملي في تحصيل ذلك الرأي الكلي من غير أن يختص بجزئى دون غيره والعقل العملي يستعين بالنظري في ذلك ثم أنه ينتقل من ذلك باستعمال مقدمات جزئية أو محسوسة الى رأى الجزئى الحاصل فيعمل بحسبه ويحصل بعماله مقاصده في معاشه ومعااده ، أما العقل النظري فاعلم أن له ست درجات بعضها فوق بعض ولكل درجة منها درجات كثيرة لا يحصى عددها إلا مبدعها

ولتتبع درجات الانسان من صباه إلى بلوغه النهاية من العلم ونسمى كل حال من أحواله باسم فاذا نظرنا إليه في أول ولادته لم نجد عنده الاستعداد لفهم الكليات المستنتجة من الجزئيات لمعرفة الحيوان والانسان والنار والماء وهكذا من الأشياء المحيطة فعند عدم هذا يسمى عقله عقلا هيولا نيا أى ماديا لم يرسم فيه شيء من أنواع الصور العقلية فكأنه مادة خالية من الصور وان كان جميع الحكماء أجمعوا على عدم وجود مادة تخلو من الصورة أما العقل فيها هو ذا خلا من الصور العقلية ولعلك تقول أنه يحس ويتخيل كما تقدم تقول ذلك ادراك قواه لا ادراكه هو فان الادراك التقدم للجزئيات لا للكليات ، فان ميز بين الأشياء كما ذكرنا فهو العقل بالملك وهذا يكون عند الغطام ونحوه إلى سن التمييز

ثم ترتقى عن ذلك وتحصل لها الاستنتاجات وتحصل النتائج بالبراهين العقلية وهي القوة الفكرية التي تحصل المعلومات بالمشقة والتعب في استخراج الجهولات كما

يحصل للتلاميذ في علوم الحساب والهندسة والجبر . فإذا استكملت هذه القوة وتمت جدا حصل عنها قوة أرقى منها وهي الحدس وهي سرعة حصول النتائج بحضور الحدود الوسطى بلا مشقة كما كان في الفكر كما يحصل للمدرسين على العلوم والسياسات مع استعداد فيهم من الفطرة معين على ذلك . وهؤلاء قليل وأقل منهم من يترقى عنهم فيصير ذا قوة قدسية إذ هي صافية تكاد تضيء . والعلم المشرق عليها عقل مستفاد من البدأ الفياض بالنور على الناس واجتماعهما معا عقل بالفعل . فهذه سبع مراتب . العقل الهولاني .

العقل بالملكة . الفكر . الحدس . القوة القدسية . العقل المستفاد . العقل بالفعل ولنضرب مثلا لهذه الدرجات السبع بالمشاهد أمامنا فنرى أن العقل الهولاني عند الطفل كالشكاة وهي الكوة في البيت المسدودة من الخارج فانها تقبل النور بدرجات مختلفة حسب ما فيها من الهواء وصقالة حيطانها وعدمها والعقل بالملكة كالزجاج فانه أشف من الهواء في الكوة ومن حيطانها وأكثر قبولا للأنارة منهما : والقوة الفكرية التي هي أرقى منهما كشجرة الزيتون إذ فيها زيت مستعد لظهور النور فيه ولكنه محتاج للنصب والتعب في اعتصاره واستخراجه ، والحدس كالزيت إذ هو أقرب لقبول ظهور النور من شجرة الزيتون وهما جميعا يولدان النور بخلاف المشكاة والزجاجة فليس فيهما قوة لإخراج النور منهما وإنما هما قابلان لاشراقه عليهما فتفطن للفرق بين الجميع والقوة القدسية كالزيت الشفاف الذي يكاد يضيء ولو لم تمسه نار . والعقل المستفاد كنور على نور فانه علم أشرق على هذه النفس القدسية واجتماع هذين النورين يسمى عقلا بالفعل وهو كالمصباح صار مضيئا بنفسه . وفي التحقيق إن الثلاثة الأخيرة مرتبة واحدة وبهذا تكون المراتب خمساً فقط .

إذا فهمت ما قلنا عليك عرفت ما نشير إليه الآن وهو قوله عز وجل ( اللهُ نُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ ) الفاض على الناس من العقول والعلوم ( كَشَكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ

مُبَارَكَةٌ زَيْتُونَةٌ لَأَشْرَقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ) إشارة إلى الاعتدال الغريب (يكادُ زَيْتُونُهَا يَضِيءُ وَلَوْلَمْ تَمْسَسَهُ نَارُ نُورٍ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مِنْ شَيْءٍ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) فتأمل هذه الآية كيف جمعت في نظمها من المشاهد أماننا ما ينطبق على درجات العقول في النوع الانساني وما استخرجه الفلاسفة من المباحث وكيف تناسب العقول والمحسوس وبقي هنا شيء هو: أنه ذكر النار وهي توقد بها المصابيح ولعلك تتذكر ما قلناه قريبا ان العقول البشرية لاتأتي لها العلوم إلا من مبدأ يشرق العلوم عليها يناسبها كما أن الكواكب تبدأ يشرق النور المشاهد على الأبصار المناسب لها وقد أوضحناه في أول الكلام في هذا الباب وهو علم النفس بما لا مزيد عليه .

فهذه النار إشارة إلى موجود لانراه ولا نلمسه ولا نحس به ولا نشمه ولا تذوقه ترفع عن ادراك الأبصار ( لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ) عجزت الأبصار عن ادراكه لأنه يناسب قوة أرقى من قوتها كما قدمنا

فلا قوة للأبصار الا على الأضواء الظاهرة وكيف لها أن تتخطى مراتبها وتعلو فتدرك ما يدرك العقل كلاثم كلا وهو يدرك الأبصار إذ هو مسيطر على العقل قطعا يمد له والعقل مسيطر على آلاته فقد علا على الجميع بالعلم ( وهو اللطيف الخبير ) فلاظنه جدا ودقته عن الأضواء المشاهدة لم تدركه الأبصار فهو برهان عقلي للقضية الأولى ( الخبير ) لأنه استعلى على هذه القوى كما قدمنا فهو برهان للقضية الثانية فتأمل هذه التمثيلات الظاهرة ثم الحجج الباهرة

فالمد للعقول المخرج لها عن البساطة إلى المعقولات في الدرجات المختلفة موجود لانراه يعبر عنه بالملائكة والعالم الأعلى وكلها نفوس قدسية شرفت على المادة أقرب إلى اشراق النور عليها من المبدع الحكيم منا . فكل علم حصل في قلوبنا فانه بواسطة عالم ينزله إلينا على حسب استعدادنا قلة وكثرة . وكل حادث على نفوسنا من المشاغل الدنيوية مؤخر لهذه النفس عن الكمال الذي اختص به ( الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالوحي والرؤيا ونحو ذلك )

واعلم أن النوع الانساني على وجه العموم له اتصال بعالم الجمال المشرق على هذه النفوس البشرية تراهم يقتبسون الغيبات في المنام وهم كثير جداً . ومنهم من تحتاج رؤياه إلى تأويل ومنهم من لا تحتاج وهذا قد يقوى فيرى في اليقظة ما يراه في المنام ثم بالحواس وهي مرتبة فوق مرتبة المنام وهؤلاء هم الكهنة ومن نحاحوهم من كل من يستعين بشيء من الخارج كالمندل وضرب الحصى والنظر في الزجاج في الشمس وتحضير الأرواح والتنويم المغناطيسى وبالجملة كل ما يفعله الانسان ويشغل الحواس عن النفس حتى تتصل بعالمها وتغير بالغيب الذى هو شغلها الحقيقى ومنبعها الأسمى فالكهان قسمان قسم يحتاج الى استعانة وقسم لا يحتاج وهذا الثانى هو ما كان لكهان العرب مثل سطيح وغيره ولكنهم لا ينظرون بكهاناتهم الا فى الأمور الجزئيات أما الكليات فمعرفةهم بها قليلة جداً كالرؤيا ويحصل عندهم كثير من الغلط وقلب الحقائق فيختلط الصادق بالكاذب كما فى الرؤيا فقد اختلط الصادق بالكاذب فيهما . وذلك لأن الخيلة تحلل وتتركب فى المنام واليقظة صدقا وكذباً كما علمت فى تعبيرها عن المزاج والأخلاق . وغيرها فيما لديها من الصور .

يشير لذلك ابن صياد وقول النبي صلى الله عليه وسلم له كيف يأتيتك؟ فقال :  
يأتيني صادق وكاذب . فقال : خلط عليك

وهؤلاء قوتهم الخيلة قوية حتى تتحمل ما يرد عليها من الحواس وما يرد عليها من العالم الأعلى وهي عند الكهان أقوى منها عند عامة الناس إذ لا يقوون إلا على اختلاس الغيبات وقت المنام فيتصور المعقول بصورة المحسوس بهيئة عجيبة جدا القوة التي هي أرقى من هذين قوة الأنبياء فانهم يرون فى اليقظة وفى المنام وأول الوحي الرؤيا الصادقة ثم يتدرج شيئاً فشيئاً حتى يتمثل له الملك بشراً سوياً فى اليقظة وأخبار الله للأنبياء على ثلاثة أقسام

(١) وحى فى القلب بحيث يعلم أن هذا من عند الله ولا يمكن دفعه (٢) وبروز هذا المصدق به من العقل فيسمع صوته ولا يرى شخصه وهذا هو المعبر عنه بسماع الملك

(٣) وظهوره الى البصر وهو رؤية الملك يكلمه وإليه الإشارة بقوله تعالى ( وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ) هي المرتبة الأولى ( أو من وراء حجاب ) هي المرتبة الثانية ( أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء ) وهي المرتبة الثالثة ( إنه عليم حكيم ) والى هنا تمت مراتب التعلم من العالم الأعلى وقد علمت أنه كله سبعة أقسام للمنام مرتبتان وللكهانة مرتبتان وللنبوة ثلاث مراتب فهذه سبعة كاملة . وتأمل كيف كانت النبوة نهاية للقوتين ثم كيف كان البشر كلهم عندهم هاتان القوتان ولعمرك لولا قوة مودعة في نوع البشر وهي الرؤيا الصادقة ما صدقوا الأنبياء فما من إنسان إلا ورأى رؤيا صادقة أو سمع بمن رآها

### اقسام العلماء

ولما اختلف الناس في أخذ العلوم من بابي الحواس والعالم القدسي رأيت العلماء قسمين قسم أخذوا علومهم عن الفكر والنظر فان تبعوا الأنبياء فهم المتكلمون وإن لم يتبعوهم فهم الفلاسفة وقسم أخذوا العلوم من جهة إشراق النفس فان تبعوا الأنبياء فهم الصوفية . أو لم يتبعوهم فهم الفلاسفة الاشراقيون فهذه أربع فرق لا يخرج أحدهم من العلماء عنها .

### اقسام العلوم

والعلوم ستة أقسام ثلاثة نظرية وثلاثة عملية فالنظرية إما أن تحتاج الى المادة في الخارج والذهن وهي الطبيعيات ويدخل تحتها علوم كثيرة من الطب والتاريخ الطبيعي والبيطرة والبيطرة وعلم التشريح وغيرها وإما أن تحتاج الى المادة في الخارج فقط لافي الذهن وهي العلوم الرياضية من الحساب والهندسة والجبر والفلك فانه لا توجد المقادير ولا الأعداد إلا في مقدرات ومعدودات معينة ولكنهما في الذهن لا تحتاج إلا الى تصور مطلق مادة لامادة مخصوصة. وإما أن لا تحتاج الى المادة لافي الخارج ولا في الذهن

وهي علم ما وراء الطبيعة من الخالق وصفاته والملائكة إذ هذه موجودة بلا مادة لما علمت في البراهين التي قدمناها ويتصورها العقل بلا مادة

وإذا كانت العلوم الرياضية لم تحتاج إلى المادة في الذهن فكيف بالمجردات فهي لا تحتاج إليها من باب أولى

وهذه الأقسام الثلاث كالتقسيم الذي قدمناه في الأجسام والأضواء وعالم العقل فالأجسام كعلم الطبيعة والأضواء كعلم الرياضة وعالم العقل كعلم الإلهي فاجتمع التقسيمان في لفظ واحد لأن البراهين الصادقة ترجع إلى أمر واحد كلها فهذه أقسام العلوم النظرية .

وهناك علوم عملية وهي سياسة الإنسان لنفسه وسياسته لأهل بيته وسياسته لأهل مدينته وهذه تكلفت بها الشريعة الإسلامية وعلوم الأخلاق والسياسات المستنتجات من التجارب فهذه ستة أقسام وتحتها فروع كثيرة تعرف بالاطلاع والمزاولة وإلى هنا تم الكلام على أقسام المعرفة الثلاثة وهي الحواس والقوى الباطنة والعقل

### التقسيم الحديث

هذا هو التقسيم الذي اعتبره المتقدمون ، ولقد عرف الغربيون هذه العلوم لما نقلوها وأخذ ( كانت ) يفكر فيها فاعتبر القوى العقلية محلاً للتقسيم وجعل المدار فيها على القوة الخيالية والقوة الذاكرة والقوة العاقلة فالقوة الخيالية جميع العلوم الأدبية وما ينحصر نحوها كالشعر والنقش والتصوير وما أشبه ذلك لأن هذه منبعها الخيال ويدخل في هذا علم البيان البديع

والشعر ثلاثة أقسام قصصى وتمثيلي وغنائى ، وللقوة الذاكرة علم التاريخ والتاريخ قسمان أثرى وبشرى والأثرى ماجاء في الديانات والبشرى تاريخ الأمم وهو المشهور في الكتب والعلوم الرياضية والطبيعية وهو المعمول به الآن حتى إن كل علم له تاريخ خاص به وللقوة العاقلة (١) علم الفلسفة وهو الباحث عن نظام

الطبيعة (٢) ومعرفة ما فوق الطبيعة من العالم الأعلى والبحث عن الله عز وجل وعن النفوس المجردة (٣) ومعرفة نفس الانسان ويدخل في ذلك علم النفس ثم المنطق ثم علم الجمال والقانون ونظام المنزل ونظام علم الأخلاق وهكذا

وهذا التقسيم يدخل فيه فروع جميع العلوم كما ان التقسيم الأول كذلك ولا ذكر لك أيها الذكي نبذة صالحة من مجمل علم المنطق فأقول جاء في المجلد الخامس عشر من تفسير الجواهر في سورة الروم عن آية ( فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ) تحت عنوان ( اللطيفة الثالثة في العلوم المنطقية )

اعلم أن الله عز وجل أعطى كل شيء خلقه فهدي ، فلكل حيوان فطرته الخاصة به بحيث كانت تلك الفطرة كافلة بشؤونه العامة والخاصة . فللنحل فطرة بها بنى بيوته وملاها بالعسل وربى ذريته . وللعنكبوت نسيجها الخاص بها الذي يكون فيه مأواه وبه يصداد الذباب وغيره من الحشرات وهكذا مما ظهر في هذا التفسير في مواضع كثيرة . هكذا الانسان له فطرة بها يهتدي لثدي أمه ويمسكه ويمتصه ويبكي عند الجوع ويضحك عند الفرح . وهكذا تسوقه غريزته وفطرته إلى قيامه بشؤونه وأعماله جميعها فيستعمل سمعه وبصره وشمه وذوقه ولمسه . كل ذلك بفطرته بلا معلم يعلمه ولا مرشد يرشده . وقد وجد الناس في عصرنا انهم عثروا في الآثار المتوغلة في القدم أن الأمم جميعها لها معابد وعبادات وصلوات وتوجهات إلى المعبود . واختلافهم إنما هو في أوصافه وعدده ولكنهم جميعاً متفقون على وجوده . إذن الاتجاه إلى موجود له سموّ وعلوّ مسلم به في الفطرة وهذا معنى قوله تعالى ( فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ) فان هذا النوع الانساني قد اتفق تاريخ أمم على انهم جميعاً كانوا يتساقبون إلى الاستعانة بالموجود الأسمى . وفطرة الناس منحصرة في ( أمرين اثنين ) لثالث لهما ( الأمر الأول ) إنماء الجسم والمحافظة على النسل فلا رجل ولا امرأة إلا دأبهما المحافظة على بقاء أجسامهما

وتربية ذريتهما . هذه فطرة فيهما ولولاها نخلت الأرض من نوع الانسان وهكذا كل حيوان ( الأمر الثاني ) المحافظة على اسعاد الروح وآية ذلك ما تراه من حفظ العرض والخوف من السماتة والعار والخزي والذل وما أشبه ذلك وهكذا ما ذكرناه من توجيهها لمبدع الكون واعترافها به وعموم ذلك في كل زمان ومكان قديماً وحديثاً حتى ان الحيوانات عند حدوث الملهمات ترفع وجوهها إلى أعلى دلالة على أنها عرفت أن هناك مصدراً لوجودها تستغيث به ليس في هذه الأرض ، إذن الفطرة تشمل أعمال الروح وأعمال الجسم اجمالاً .

هذه الفطرة كما ألهمت الصبي التقام ثدي أمه حفزت المراهق والشاب والشيخ أن يتعاطوا الطعام والشراب والزرع والتجارة وجميع أعمال الحياة ، فالناس عاملون في الدنيا لطلب الرزق بفطرتهم كما تعمل الطير سواء بسواء ، ولقد تجد أمة كالأمة المصرية والعراقية نهراً يجري كالنيل والفرات فيستعملونه بأن يسقوا أرضهم ويزرعوها وهنا يساعد تلك الفطرة مدرّبون ومعلمون فيتعلم الكبار الصغار كيف يحرثون الأرض وكيف يبذرون البذر وهذا بعينه فطرة بعض الطير تساعد أولادها في غدوها ورواحها وتكون قدوة لها ، وهذه الفطرة كافية للأمم في حال بداوتها وفي حال طفوليتها فتكون أعمالهم قليلة وطرق كسبهم أقرب إلى البساطة وكلما كثر عددهم وازداد جمعهم سمت فيهم ملكات التفكير وازدادت طرق الأعمال فاحتاجوا إلى إبراز ما كمن في فطرتهم من فنون العلوم كالمهندسة والحساب والجبر ورصدوا النجوم ليعرفوا طرق البر والبحر، هنالك يستخرجون من الأرض والعوالم المحيطة بهم كنوزاً كانت مخبوءة فيها على مقدار استخراج القوى الكامنة في فطرتهم إلى حيز الوجود وذلك بالعلوم الطبيعية والرياضية وغيرها ( وبيانه ) ان الانسان يسمع ويبصر المسموعات والمبصرات ولكل حاسة محسوسات خاصة ، فالألوان والبعد والقرب والشكل والقدر والسطح وما أشبه ذلك تعرف بالبصر وأنواع الأصوات تعرف بالسمع . فاذا كان المحسوس لا يعرف إلا بحاسة واحدة وكانت الحاسة سليمة من الآفات فهذه الحاسة صادقة في حكمها عليه ، ألا ترى

أن الصوت إنما يعرف بالسمع ، أما اللون والشكل مثلا فالسمع لا يدركهما هكذا الصوت لا يدركه البصر ، إذن هذان كل واحد منهما مختص بحاسة لا يشاركها سواها في إدراكه . إذن يصدق السمع في السموع والبصر فيما اختص به من الألوان ونحوها

### ﴿ التفاحة واللبن ﴾

فأما أمثال التفاح واللبن فأنهما لا يختصان بحاسة واحدة . فإذن لا يصدق العين في حكمها على التفاحة ولا في حكمها على اللبن ، وبيانه أن الانسان يشاهد التفاحة فيحكم عادة بأنها تفاحة وقد يكون مخطئاً لأننا لو صنعنا تفاحة من الكافور ولو أنها بلون التفاح ورأيناها ثم شممناها لحكنا في أول الأمر خطأ أنها تفاحة مع ان هناك حاستين أخريين يجب أن تشهدا وهما حاسة الذوق وحاسة اللمس فان حكمتافيهما وإفلا. هكذا إذا صنعنا ما يشبه اللبن كالدقيق المخلوط بالماء فالعين تراه ويخيل للعقل انه لبن فلا بد من حكم القوة الدائقة مع العين ، فهنا ( ثلاث مراتب في الحكم ) حكم بحاسة واحدة وحكم بحاستين وحكم بثلاث حواس . فاذا خالفنا هذه القواعد فان العقل قد يحكم خطأ . ألا ترى انه يرى السراب في وسط النهار فيحكم بأنه ماء والعين صادقة في أنها رأت لون الماء وهيئته فحكم العقل إذن بأنه ماء خطأ لأن الماء لا يعرف بحاسة البصر وحده فلا بد من انضمام حاسة اللمس اليه ليعرف انه سائل وحاسة الذوق ليعرف انه ماء وما دام ذلك متعذراً على من بالصحراء فحكمه معرض للخطأ . هذا مجمل الأدلة وهي في أحكام الحواس في محوساتها

### ﴿ مقاييس العقول التي تقيس بها المعاني فتعرف صادقها وكاذبها ﴾

للعقول الانسانية المنبعثة من الفطرة ( مقاييس خمسة ) مقياس يحكم حكماً قاطعاً . ومقياس يحكم حكماً ظنياً . ومقياس يقيس ويكون أضعف حكماً مما قبله . ومقياس يكون أقرب إلى الوهم . ومقياس قصد أن يكون حكمه خطأ . فأما المقياس الأول فهو البرهان . وأما الثاني فهو الجدل . وأما الثالث فهو الخطابة . وأما الرابع فهو الشعر . وأما الخامس

فهو السفسطة . أما البرهان فذلك هو المبني على ما شهدت به الفطرة في مبادئ أمرها بحيث لا يختلف فيها ولا يشبه الناس من جهال وعلماء وأنبياء وأذكىاء مثل .

(١) أن الواحد نصف الاثنين والكل أعظم من الجزء

(٢) والشيان المساويان لشيء واحد متساويان

(٣) والنقي والاثبات لا يجتمعان

(٤) وإذا أضفنا شيئين متساويين لشيئين متساويين كان المجموعان متساويين

(٥) وإذا طرحنا شيئين متساويين من شيئين متساويين كان الباقيان متساويان

(٦) وإذا أضفنا شيئين متساويين إلى شيئين غير متساويين كان المجموعان غير

متساويين

(٧) وإذا طرحنا شيئين متساويين من شيئين غير متساويين كان الباقيان غير

متساويين

(٨) وإذا ساوى شيان نصف الشيء ، كانا متساويين

(٩) وإذا ملأ شيان حيزاً واحداً على التعاقب كانا متساويين

وهكذا مما ذكر ( اقليدس ) في أوائل الهندسة ، وهذه أمثالها هي المسميات أوليات لأنها تعرف في أوائل العقول ومثلها المحسوسات المتقدمة على شرط سلامة الحواس واستيفاء الشروط التي أشرنا إليها . وهكذا ما تصدقه التجربة مثل العقاقير الطبية المسهلة والمخدرة والنومة والمعطية حرارة أو برودة للجسم ، فهذه متى صدقت تجربتها عدت من المقطوع بها . وهكذا المتواتر الذي شهد به جموع يحكم العقل قطعاً بصدقهم كما تقول في مصر ان في الأرض بلاداً تسمى الصين أو اليابان أو فرنسا أو ألمانيا أو استراليا ومكة والمدينة واليمن فهذه تقطع بوجودها وان لم نرها . وهكذا ملاحظناه مراراً وعقلناه مثل أن نرى أن القمر إذا كان مقابلاً للشمس امتلاً ضوءاً وكلما اقترب منها قل ضوءه ، ومتى كان مقارناً لها لم يكن له ضوء ، فهذا دلنا على أنه استمدت نوره منها لأنه لما قابلها أشرق نورها عليه فلما صار بيننا وبينها فعلا كان وجهه المشرق

في جهة الشمس لاني جهتنا ثم تكرر هذا فحكنا حكماً يقينياً كما حكنا في المجربات سابقاً . وهكذا نلاحظ في باطننا آلاماً نسميها جوعاً وآلاماً نسميها عطشاً وأخرى نسميها شيباً وأخرى نسميها مرضاً وهي كثيرة لأحد لها ، ونجد لنا غضباً وحسداً وحقداً ورهبة وجباً وكراهة فهذه يقينيات

فهذه كلها اذا جعلت مقدمات في أدلتنا اليقينية كانت معينة على صدق النتيجة

هذا هو المسمى بالبرهان ويليه في القوة الجدل

### ﴿ الجدل والخطابة والسفسطة والشعر ﴾

أما الجدل فهو ما يستعمله المتناظران بحيث يورد كل منهما ما ينسلم الخصم به كالسلمات والمشهورات كرجال الدين والمذاهب المختلفة في كل أمة فهؤلاء يكفهم في أدلتهم ما يوجب الظن والترجيح لا غير . وأقل من الجدل الخطابة ، فالخطيب يشوق المستمعين بما يخلب عقولهم فيستعين بالأمثال المشهورة مثلاً ويحبهم فيما يريد بالطرق المتوسطة بين الصدق والكذب كالأسلوب الشعري ، وهناك ما يقصد به التحسين والتقبيح . ولقد تكفل بهذا فن البيان بأمثال المجاز والكناية والتشبيه والاستعارة التمثيلية وما أشبه ذلك . فهذه كلها يقصد بها جذب المخاطبين بالصور الجذابة ولا يراعى فيها الحقائق والسامع ها قد يعرف كذبها ولكن لها أثر في النفس وأدائها كلها المغالطة وهي السفسطة التي يستعملها رجال السياسة وأمثالهم بأن يأتوا بأدلة تشبه الحق وقد أرادوا بها باطلاً وقد شبهوها بالدينار فإن كان ذهباً خالصاً فهو مثال للبرهان الذي لا يخطر ضده بالبال وإن كان فيه زغل لا يعرفه إلا الحاذقون كان مثالا للجدل وإن كان زغله يعرف بسهولة كان مثالا للخطابة وإن كان نحاساً كانه كان مثالا للمغالطة . وأما الشعر فهو يقصد به التحسين والتقبيح لا البرهان

فهذا كله ملخص من علم المنطق وعلم المنطق ملح العلوم كلها وما ذكرناه هو أحد قسميه المسمى بالتصديق واعلم أن المطلوب علمه

(١) إن كان أمثال هذه الشجرة أو هذه الدواة فهذا لا يبرهن عليه ولكن سبيل

العلم اليه انما يكون بالتخلييل والتحليل قام به علم الكيمياء ، فترى علم الكيمياء قام بتحليل المواد فعرفت فيحللون الماء والهواء ويفصلون العناصر التي حواها كلاهما فيحكمون حكماً قاطعاً

(٢) وان كان نوعاً كالانسان فلا سبيل للحكم عليه بالتحليل ولا بالبرهان ولكن بالتعريف وذلك بالحد أو الرسم المعروفين في المنطق وذلك بالجنس والفصل القريب في الأول بأن يقال هو حيوان ناطق أو بالجنس وحده أو بالجنس والفصل البعيد في الثاني

(٣) وان كان المطلوب جنساً فلاحكم عليه بمحد ولا بتحليل بل بالقياس كحدوث العالم وكنعق العقاقير وضرها وهكذا فهذه لا بد فيها من القياس

(٤) وان كان المطلوب هو تمييز الكليات بعضها من بعض فلا سبيل لها إلا بالتقسيم كعرفة الفرق بين المادة ومقاديرها وأعراضها المحسوسة من أوصافها المنظورة والمسموعة والمدركة والمسمومة ومن نسبتها إلى غيرها كالأبوة والبنوة ومكانها وزمانها وفعالها في غيرها وانفعالها تغيرها . فهذا كله لا يتم إلا بالتقسيم وله فن يسمى ( فن المقولات ) من علم المنطق وهو أيضاً من الفلسفة العامة . واعلم ان المتعلمين في مدارس العالم قاطبة يستعملون التحليل كما تقدم في علم الكيمياء بسائر فروعها فهذا يورثهم يقيناً فيما يزاولونه وبه استنتجوا منافع للنوع الانساني وهذا من فطرة الله التي فطر الناس عليها فاذا رأينا الله فطر الطفل على التقام ثدي أمه وعلى إغماض عينه سريعا إذا أحس ، باقتراب جسم غريب اليها ، نرى الذين يحللون المواد يعرفون حقائقها بفطرتهم غاية الأمر أن الفطرة في الأول لا تحتاج إلى تعلم لاستخراج ما كمن في أنفنا ، وهم أيضاً يقسمون الكلمة إلى ( ثلاثة أقسام ) اسم وفعل وحرف وهو من أنواع المنطق المتقدمة ، ونراهم أيضاً يقرؤون الهندسة وكالها براهين والبراهين أشرف أنواع القياس ، إذن العلوم التي يدرسها الناس مشحونة بعلم المنطق الذي به استخراج الناس المجهول بواسطة المعلوم وهذا الاستخراج سببه الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، فاذا فطر الله الناس على

استعمال الفاكهة لتي يرونها في الخيال بلا زرع هكذا فطرحم على أن يستخرجوا من الأرض الجذ وانبحث ما يوزي ما استعماله بلا جد ولا نصب ، واذا رأينهم أجاياوا الأنبياء كتبينا صلى الله عليه وسلم إذا أسمعه دين الفطرة وقرأ لهم القرآن هكذا نراهم استخرجوا بعقولهم وفطنهم من هذا المسموع ومن المعقول الموافق له عموما استبحر بها العمران وارتقت الأمم ، فشجر البادية استعماله بفطرتنا وشجر حدائقنا استعماله بعد الجذ والنصب بمساعدة فطرتنا والقرآن عرفنا منه حرمة وأد النبات بمجرد سماعه ولكن لا ننظم الأمم ولا الجماعات على طريق القرآن إلا بجد ونصب وأعمال فكر بمساعدة فطرتنا

### ﴿ مراتب الناس في الاستدلال ﴾

(١) « مرتبة الصبي » إن الصبيان مطبوعون على القياس والاستدلال وتكون نتائجهم ما بين صادقة وكاذبة لعدم اختبارهم ، فاذا رأى الصبي نظيره في مكتب أو طريق حكم بأن له والدين وهذا الحكم صحيح لأنه استدلال بالمعلول على العلة لأن المعلول لا بد له من علة

(٢) إذا رأى زوجا وزوجة قال لهما أين ولدكما وهذا الحكم يصدق ويكذب لجواز ألا يكون لهما ولد لأن العلة لا تنتج المعلول إلا إذا استوفت جميع شرائطها والزوجان لا يلزم من وجودهما وجود الولد لأهمهما يصلحان علة بشرائط خاصة ومتى فقدت لم يصلحا أن يكونا علة

(٣) وهكذا كلما رأى ولداً ظن أن له أخوة كاخوته وداراً وجوعاً وشبعاً على حسب ما يقوم بنفسه هو في وقت الانصاف بذلك ، فان جاع ظن جميع الأولاد جياعا وهكذا إن عطش وعلى ذلك فقس ولا يقلع عن ذلك إلا بعد أن يعقل ويدرك خطأه (٤) ومتى كبر وأدرك خطأ تلك القضايا وجد في نفسه بقيتها مثل أن يعتقد أن المطر في كل بلد حين يكون ببلده وهكذا الحر والبرد والصيف والشتاء وهذا كله خطأ ، ففي الأرض شتاء أيام صيف بلاده وبالعكس وعلى ذلك فقس وذلك يمنعه التعلم (٥) إن كل نتيجة لا بد لها من مقدمتين فأكثر في كل استدلال منطقي أو هندسي

أو غيرها وقد تكون المقدمات كثيرة جداً مثل قولهم زوايا المثلث تساوى قائمتين فانها لم تكن إلا بعد اثنين وثلاثين شكلاً وقولهم مربع وتر الزاوية القائمة مساو لمربع مجموع الضلعين الآخرين لم يتم إلا بعد (٤٧) شكلاً وهذا الشكل عندهم يسمى شكل العروس (٦) وقد يكتفى في البرهان بالقليل من المقدمات . مثال ذلك في الاستدلال على النفس فيقال ( كل جسم فهو ذو جهات ) ولا جرم أن هذه مقدمة صادقة لا عوج فيها ( وليس يمكن الجسم أن يتحرك إلى جميع جهاته دفعة واحدة ) وهذه مقدمة أيضاً صادقة في أولية العقول ( وكل جسم يتحرك إلى جهة فلعله ما يتحرك ) وهذا اثبات للنفس ، ويراد بعد ذلك اثبات انها جوهر لا عرض فيقال ( وكل علة محركة للجسم لا يتخلو من أن تكون حركتها على وتيرة واحدة في جهة واحدة مثل حركة الثقل إلى أسفل والخفيف إلى فوق ، فهذه تسمى علة طبيعية ، واما أن تكون حركتها إلى جهات مختلفة وعلى فنون شتى بارادة واختيار مثل حركة الحيوان فتسمى نفسانية ) وهذه قسمة عقلية مدركة حساً ( وكل علة محركة للجسم بارادة واختيار فهو جوهر ) فالنفس إذن جوهر لأن العرض لا فعل له

هذا ملخص ما ذكره ( اخوان الصفا ) هنا وأنا أقول أيها الذكي هذه الألفاظ غريبة على هذا الكتاب وقد طال أمدها ولكن الأمر سهل ، فعنى هذا كله أن الانسان قد يستدل بمقدمات طويلة وكل مقدمة تحتاج لما قبلها وذلك كأدلة الهندسة فهي متصل بعضها ببعض حتى تبلغ المئات ولكنها في آخر أمرها ترجع إلى ما يعرف في أوائل العقول مثل ما تقدم وقد تكون المقدمات قليلة كأن يقال في الاستدلال على النفس ان الجسم له جهات ست فلماذا يتحرك إلى جهة دون جهة فلا بد من سبب ، فان رأيناها تحرك إلى جهة واحدة على وتيرة واحدة سميناها علة طبيعية ، ومعنى هذا أن الذى حرك هذا الجسم ليس جسماً بل هو أمر معنوى وان رأيناها يتحرك إلى جهات مختلفات بارادته واختياره سمينا ذلك المحرك نفساً وذلك كالحیوان والانسان ، ولكن هذه القوة التي سميناها نفساً ربما كانت عرضاً أعنى شيئاً كاللون والخفة والثقل واذن

يكون تابعاً للجسم لأنه من أوصافه فنقول « وكل شيء يحرك الجسم بالارادة والاختيار لا بد أن يكون جوهرًا » أى انه ليس عرضاً لأن العرض لا فعل له وإلا لجاز أن يكون اللون يعقل ويفهم وهكذا الثقل والخفة وهذا تأباه الفطر الانسانية

هذا كله من فطرة الله التى فطر الناس عليها ، فالاستدلال بالبرهان والمعرفة بالمنطق وتحرى الصدق فى النظريات ، كل هذا من موجبات الفطرة فاذا رأينا قوما يعيشون فى الأكوخ ويكتفون بالصيد ولا يعرفون الحرث ولا القنطار ولا الجسور قلنا هكذا رأينا فى الحيوان أمثال الناس تربي ذريتها بغير وجود آبائها أى إن الحيوانية هناك ناقصة . هكذا الانسانية هنا ناقصة لم تستحكم . واذا رأينا أناسا شقوا الأرض وزرعوها وارتقوا قلنا هكذا رأينا الطير تحضن بيضها وتربي ولدها وهذا كله سميناه فطرة . فالطير تربي وتحضن بيضها بالفطرة كما ان الجراد ترك بيضه وقصص وحده بالفطرة مع نقصهم وآخرون عاشوا بالعلم حرقوا الأرض وزرعوها وشقوا الأنهار ونظموها كما حضنت الطيور البيض وربت أفراسها بالفطرة غاية الأمر أن الفطرة فى الطير والانسان المدنى أكل من الفطرة فى الانسان الممجى كما ان الفطرة فى الطير أكل منها فى الجراد والناموس والذباب . ونسبة الطير الى الآساد والوحوش أبعد جدا من النسبة بين الانسان المنوحش وذى المدنية فى عصرنا الحاضر . إذن هذا الدين الاسلامى — فطرة الله التى فطر الناس عليها — فهو دين المتوحشين لأن الوحشية من الفطرة ودين أصحاب المدن العظيمة لأن المدنية من الفطرة ولا يخرجها عن الفطرة ارتقاؤها كما لم يخرج السباع عن الفطرة ارتقاؤها عن الطيور لأنها تحمل ذريتها وترضعها فضلا عن أمثال الجراد والذباب والناموس التى لا ترى ذريتها أصلا ، فهذه الأنعام والسباع من فطرة الله وأهل المدن العظيمة لم يخرجهم عن الفطرة ارتقاؤهم عن الوحشين ، وهذا الدين فيه المواعظ للعامة وفيه البراهين للنخاسة إيماء الى ما قلناه ، وفيه عرش بلقيس ومملك سليمان كما أن فيه مدح المؤثرين على أنفسهم والقانعين والفقراء الذين لا يسألون الناس إلحافا

## مسامرة في علم الحكاء والفلاسفة

يحكى أن ملكاً عظيماً من ملوك الهند كان له وزير عالم حكيم وهو مطلع على جهل الملك وعبادة الأصنام وقد مكث ذلك الوزير دهرًا طويلاً يطلب الفرصة لخطابه إلى أن اتفق أن قال له الملك ذات ليلة بعد ما فرغنا من النظر في أمر الرعية وكتب النوبة وتدير السياسة هل لك أن نخرج الليلة متنكرين لنعرف حال المدينة ونتجسس أحوال الرعية وننظر إلى آثار المطر وكيفية هذه البلاد ومصالح العباد وكان من سنة ملوك تلك البلاد أن لا يركب الملك إلا في كل سنة مرة ولا يظهر للرعية إلا يوماً واحداً كل ذلك تعظيماً لأمر الملك وسياسة لأمر الرعية فخرجوا يطوفان حول المدينة متنكرين فبينما هما كذلك إذ هما بضوء من بعيد فامتد نحوه حتى دنوا منه فاذا هما بمنزلة شبه راية عظيمة عليها حيف مرمية وسهاد طرية منتنة الرائحة وإذا في أسفله ثقبه شبه المغارة وإذا في أقصى داخلها رجل قاعد مشوه الخلقه على دكة قد أصلحها من بين سهاد ورماد تلك المزبلة وقد فرش تحته من خرق تلك المزبلة شبه بساط وعليه مدرعة قد خاطها شبه مرقعة وفي رجليه تَبَانٌ<sup>(١)</sup> وعلى رأسه شملة مثل ذلك وإذا بحذائه امرأة تشبهه في الخلقه والتشوه وعليها كسوات شبه درع وخمار ومقنعة مثل ما عليه من خرق تلك المزبلة وإذا بين يديهما سراج من خرق فوق آجرة شبه منارة ومجنيه جرة مكسورة فيها دردى كالخلل وقد مزجه بيسير من ماء والى جنبه سلة خوص فيها تاقات كرفس وكراث وبيد كل واحد منهما مشربة مكسورة يفترفان من تلك الجرة ويشربانها وإذا على فخذه قصبه قد مد عليها خيطاً شبه قوس النداف وهو ينقر عليها بقضيب في يده ويفنى بأبيات غير موزونة خارجة عن الإيقاع وإذا به يذكر في تلك الأبيات حسن تلك المرأة ويصف جمالها وشدة عشقه لها وافراط محبته إياها وإذا بيدها خشبة غربال مكسورة قد مدت عليها قطعة جلد غير مدبوغ جايفة منتنة الرائحة شبه الدف وهي تنقر إذا غنى هو وترقص وتثنى عليه وإذا شرب كل واحد منهما سار صاحبه وحياء بتاقه من ذلك الكرفس

(١) التبان كرمال سروال صغير يستر العورة

والكرواث وهي تثني عليه بالحسن والجمال كأنه يوسف الصديق وتسميه شاهنشاه ملك الملوك وهو يسميها كديانوية سيدة النساء ويشرب ويثني عليها ويصفها بالحسن والجمال ما يقصر وصف الحور العين في جنب ذلك وإذا شربا سأل الله ألا يعدمهما ما هما فيه ولا يغير ما بهما من نعمة وأن يبقيهما على تلك الحال أبدا ما بقي الدهر فلما أبصر الملك والوزير ما هما فيه من اللذة والسرور والفرح طال وقوفهما متعجبين من حال ذينك المسكينين ثم قال عند ذلك الملك للوزير ما أظن اني في طول حياتي وعز سلطاني ونعيم ملكي وأيام شبابي ومجالس لهوى مع تمكني من شهوتي بلغ مني الفرح واللذة والسرور ما يصفان هذان المسكينان الحقييران الوضران من حالهما ومع هذا كله أظن انه لا يفوتهما هذه الحال كل ليلة ان أرادا لأنه لا يعرض لهما شيء من العوائق التي تعترض لنا من الأشغال المانعة عن فراغ مجلس اللذة واللهو مثل خروج الخوارج في اطراف المملكة واضطراب النواحي وشغب الجند وطلبهم الأرزاق ومثل النظر في تظلم الرعية وهمج العامة والنظر في محاسبة الكتاب وتولية العمال ومثل النظر في التعازي والتهاني والنظر في أمر الخاصة واصلاح أمر العامة ومثل النظر في القصص والتوقيعات وحفظ الخزائن وتفقد الرسل الواردين من الأطراف واكرامهم والتجمل لهم ومثل النظر في الكتب الواردة من أصحاب الأخبار وكتب أجوبتها وما شا كل هذه من الأشغال المنقصة للعيش المنقصة للذات الموردة للعموم والهجوم والأحزان ثم قال الملك ولكني أظن انه لو كان هذان المسكينان دخلا منازلنا وألبسا ثيابنا وأبصرا مجالسنا وذاقا من طعامنا وعأينا أحوال ملكنا وشاهدا عز سلطاننا وعرفا لذة نعيمنا مرة واحدة مقدار ساعة ثم ردا الى حالهما لما تهنيا بالعيش بعد ذلك ولا وجدا لهذه الحال النكرة هما التي فيها لذة أبدا وصغر في أعينهما ما هما فيه من اللذة والفرح والسرور فلما فرغ الملك من هذا الخطاب وسمع الوزير قول الملك تذكر ما قال له صاحبه لما شكاه اليه اطلب الفرصة وضع الدواء على حيث الداء فان لكل مقام مقالا قال الوزير للملك أخاف أيها الملك أن نكون فيما نحن فيه من عز سلطاننا ونعيم ملكنا ولذيذ شهواتنا

وسرورنا بأحوالنا وفرحنا بما خولنا مغرورين كغرور هذين المسكينين بما هما فيه ونحن محقورون وجميع أحوالنا في أعين قوم آخرين كاحتقار هذين المسكينين عند أحوالنا فلما سمع الملك قول الوزير استكبره واستعظمه فقال له وهل تعلم في الأرض اليوم مملكة أوسع من مملكتنا أو سلطانا أعز من سلطاننا أو بلدا أكثر نعما من بلدنا أو مروءة أحسن من مروءتنا قال له الوزير لا قال الملك فمن هؤلاء القوم الذين زعمت انه يصغر حالنا في أعينهم ويستحقرون أمرنا قتل قوم يقال لهم النساك فقال الملك أين بلدهم ومن أي ناس هم قال هم من قبائل شتى متفرقين في المدن وفي الآفاق والبلاد يجمعهم دين واحد ومذهب واحد ورأى واحد قال صف لي مذهبهم وحالمهم قال هم أمناء الله في خلقه وخلفاء أنبيائه وأئمة لعباده وليس في الناس منهم إلا نفر يسير لأنهم في الأنام كالملح في الطعام بسؤالهم ينزل الله القطر من السماء والبركات في الأرض وبتدعائهم يرفع الله من العباد القحط والغلا والوباء ومنهم حفاظ كتب الله وعلماء تأويلها فقال الملك ومن أنبياء الله فقال الوزير هم طائفة من نبي آدم اصطفاهم من عباده وقرَّبهم وناجهم وكشف لهم عن مكنون أسرار غيبه وجعلهم أمناء وحيه وسفراء بينهم وبين خلقه أرسلهم من عالم الأرواح الذي في ملكوت السماء الى عالم الكون والفساد في الأرض وأنزل معهم الكتاب ليدعوا عباده الى جواره في الجنة التي كان أبوهم آدم فيها فقال الملك وماذا يصفون من أحوال عالم الأرواح وملكوت السموات قال يقولون ان هنالك فضاء نسيجا وافلاكا دوارة وكواكب سياراة وأنوار ساطعة وبهجة ونسما وروحاً وريحاناً ونعيم الجنان والرضوان وجوار حور حسان وولدان وغلمان ومردان وطيب ونسيم لا يخالطها حجير الصيف وزمهرير الشتاء ولا ظلمة الأجسام ولا فيء الأجرام ولا مزاحمة في المكان وملاك دائم وعز سرمد وأهلها أحياء لا يموتون وشبان لا يهرمون وأصحاء لا يمرضون وأغنياء لا يفتقرون وجيران لا يتحاسدون وأصدقاء لا يختلفون ونعيمهم لا يكدره بؤس ولذاتهم لا يخالطها آلام وسرورهم لا يشوبه أحزان وفرحهم لا يداخله غموم ولا هموم ولا نوائب ولا حدثان ولا تغيير الزمان فقال الملك وماذا يقولون هل

الى هناك وصول قال الوزير لا يشكون ان من طلبها كما يجب وصل اليها قال الملك فكيف وجه الطلب وكيف المسلك وكيف الوصول فوصف له الوزير ما ذكرنا طرفا منه في رسالتنا الديموسيات وما أخبرت به الأنبياء عليهم السلام في كتبها وما أشارت اليه لفلاسفة الحكماء في مرموزاتها

﴿ فصل ﴾ فقال الملك للوزير مذ متي عرفت هذه القصة واعتقدت هذا الرأي وعلمت هذا المذهب فقال مذ زمان قال فما الذي منعتك ان تذاكرني بهذا الأمر الجليل العظيم الخطير في طول صحبتك معي قال الوزير اني لم أترك مداكرة الملك بهذا الأمر الجليل لأني نخلت عليك به أو لم أرك أهلا لذلك ولكني تركته انتظارا وطلبا لفرصة توجب الخطاب وموضعه للكلام لأن النظر في هذا العلم والبحث عن تحقيق هذا الأمر والتصور له بكنه المعرفة يحتاج الى قلب فارغ من أشغال الدنيا ونفس صافية من العوارض المكدره والآراء الفاسدة والعادات الرديه وهمه عالية في طلب الأمور الشريفة والزهد في الشهوات الجسمانية المذمومة وترك اللذات المحسوسة الجرمانية الفانية حتى يتصورها بحتها وصدقها كي لا يكون المقر بهذا الأمر مقادا كالعوام الذين لا يعلمون من القول الا زورا ولا من العمل الا ظاهرا ولا من العلوم الا قشورا ولا من الدين الا تعصبا وان الملوك كثر الناس شغلا في أمور اندنيا وأطولهم أملا وأرضهم في الخلود في الدنيا وأكثرهم تمنيا للبقاء فيها الشدة تمكهم من التمتع بنعيمها واستغراقهم في شهوات لذاتها ولا يصلح لهذا كرهة بهذا العلم الا فتیان أذكاء لهم نفوس صافية وقلوب واعية بريئون من الآراء الفاسدة غير معتادين للعادات الرديه أو مشايخ مهذبون في العلوم الرياضية مجربون في الأمور السياسية محبون للعلوم الالهية غير متعصبين في المذاهب المختلفة والآراء المتناقضة أو نفوس ملكية لها هم عالية في طلب مراتب الملائكة والأمور السماوية والمعقولات الروحانية والوجود المحض والبقاء الدائم والدوام السرمد

فقال الملك ما يبعنا بعد هذا اليوم الا أن نجعل أكثر عنايتنا في الكشف عن حقيقة هذا الأمر على صحة وبيان من غير تقليد ولا تكذيب فان بان انه حق طلبناه

حق الطلب وتركنا ما نحن فيه من عبادة الأصنام وأمور هذه الدنيا التي كلها الى زوال وفناء كما فنيت أعمار الذين كانوا من قبلنا فزال ملكهم ونعيمهم ثم قال له اخبرني ماذا يصفون الحكماء من أصناف الخلائق هناك قال يقولون لا يعلم عددهم إلا الله كما لا يحصى عدد الخلائق الذين هم في الأرض من أجناس الحيوان من الأنعام والسباع والوحوش والطيور والهوام والحشرات والدواب وحيوان الماء والبحار أجمع وأصناف بنى آدم من أجناس الأمم من الترك والحبس والزنج والنوبة والعرب والعجم والفرس والروم والهند والسند والصين والنبط والازط والاكراد وياجوج وماموج والسيسان وأمم آخر غير معروفة عند كثير من الناس وكل هؤلاء مختلفو الألسن والألوان والأخلاق والطباع والعادات والأعمال والأفعال والصنائع والآراء والمذاهب من أهل المدن والقرى والسوادات والسواحل والجزائر والبرارى نحو من سبعة عشر ألف مدينة يملكها نحو من ألف ملك هذا في الربع المسكون من الأرض على ان الأرض بجميع ما عليها من البحار والجبال والبرارى والأنهار والعمران والخراب ما هي في فسحة سعة الهواء الا كحلقة ملقاة في بركة صحراء وفضل سعة كل واحد من الأفلاك التسعة على الهواء كفضل البرية على تلك. الحلقة أفتري أيها الملك ان الخالق تعالى ترك تلك الاماكن الواسعة مع شرف جوهرها وشرف جوهر تلك الاجرام وطيب نسيم ذلك المكان فارغة خالية لم يجعل فيها أهلا وسكانا وخلائق يليق بها وهكذا انه لم يترك البحار الإجاج الأمواه حتى خلق في قوارها الزاخرة أجناساً من الحيوانات وأنواعاً من السموك والحيتان وهكذا جوهر الهواء الرقيق لم يترك فارغاً حتى خلق فيه أجناساً من الطيور تسبح كما يسبح السمك في الماء وكذلك هذه البرارى اليابسة الجافة لم يتركها خاوية حتى جعل فيها أجناساً من الوحوش والسباع والأنعام وكذلك في الآجام والآكام ورؤس الجبال وبطون الأودية وشطوط الأنهار حتى خلق في لب النبات وفي ثمر الشجر في جوف الحب حيوانات مختلفة الصور والأشكال انتهى

## الارادة والاختيار

والإنسان ميل طبيعي الى ما يعلمه بهذه القوى الثلاث ويسمى إرادة وهي عامة في الحيوان والانسان فيشتاق الحيوان الى ما يراه بحواسه وينفر عما يضره وهكذا الى ما يتخيله وما يعقله ولكل من هذه الثلاث مرغوب عنه ومرغوب فيه فهي ستة أقسام ثلاثة مرادة وثلاثة غير مرادة . فما اشتاقت اليه النفس من المحسوسات حركت تحت إرادتها الاعضاء للطلب وما نفرت عنه حركتها للهرب منه فتأمل كيف خلقت الاعضاء صالحة للطلب والهرب على مقتضى ما تحسه في الخارج ليكون النظام تاماً وتكون الأفعال هنا جسمية بالأعضاء وعقلية بشعور الحواس وأما القوة الخييلة فيكون وصولها الى ما أرادته بمجرد التخيل أو بالاستعانة بالحواس على استحصار الصورة بالمشاهدة أو بأخذها من العقل كما في حال الرؤيا الصادقة .

وأما العقل فتشاق لشيء فائما يكون بأعمال عقلية لا غير مسخراً لتلك القوى . تحت أمره لتحضر له الجزئيات لاستنتاج الكلّيات ذلك عمل عقلي فلكل درجة من درجات الحس عمل يناسبها

## السعادة والاختيار

لا ريب ان الإرادة عامة عند جميع الحيوان وهو مشترك كله في الحواس وقوى النفس يتصرف على حسب الخيال والحواس اما الانسان فأرادته التابعة لعقله أرقى من تلك الإرادة إذ هذه معرفة للعواقب لا كالأرادة في الحيوان إذ لا يعرف الا المشاهد أمامه الحاضر ولنسم إرادة الانسان اختياراً ولا ريب انه بهذا الاختيار يرقى الى السعادة تارة وينزل الى حضيض الهوان تارة أخرى ومتى تمكن الشوق في فؤاده حركة طبعاً الى المشتهى ولا تظن ان العقل معها وصل من الكمال وكذا الخيال والحس يكفي للحياة في هذه الدنيا بدون شوق فالحيوان بحسه وخياله والانسان بعقله مهما أدرك كل منهم النافع والضار لا يعبأ به الا اذا حصل عنده شوق الى الطلب أو الهرب فلا بد اذن

في كل أمة من انماء قوة الشوق عند التلاميذ الى المعالي وعلو الحياة ونظام الأمة والعلوم والمعارف ومكارم الأخلاق وبهذا الشوق يشتغل الناس بالسعادة ويصلون الى الكمال

### حكمة تامة ونظام عجيب

ها أنت ذا علمت نظام العين وتركيبها العجيب أولاً ثم قوى النفس الداخلة وما معها من العقل ودرجاته ثم العالم كله وغرائبه فما هو ذا تركيب العين في غاية من الاتقان والبهجة والنواميس الغريبة التي علمتها وعالم النفس قد شاهدت حكمه العجيبة ورأيت أن العين والنفس كلاهما من حسن اتقانه قد اتسع لما لا يحصى من العالم فالعين وسعت السموات والأرض وان كانت لا شعور لها بشيء. وإنما هي آلة والنفس وقواها قد أدركت ما لا نهاية له من الصور والمعقولات فكأن كلاهما عالم مركب متقن غاية الاتقان ولعمري ان بينهما وبين العالم كله مشاكلة تامة ولذلك يقول تعالى ( اللهُ نُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ) إشارة الى النظام العمومي في السموات والأرض .

ثم قال مثل نوره كمشكاة الآية إشارة الى ان عالم النفس عالم وضعه كوضع العالم كله والسراج وأما العين فانما هي آلة من آلات النفس وهاك البيان قد علمت ان المصباح ما تم أمره إلا بأشياء مختلفة من زجاج ومشكاة ومادة بها يتقد كالكهرباء أو المواد الدهنية وهي لا جرم تختلف درجات بعضها فوق بعض في الاضاءة ولولا هذه الشروط ما تمت الاضاءة ولو نظرنا الى جسم الانسان لوجدناه مركبا من عناصر مختلفة اتحدت وكونت هيئة اشتعلت فيها نار الروح الحيوانية ولكن فرق بين النارين فهذه نار معنوية وتلك نار حسية لأن تركيب الجسم أتم من تركيب المصباح ثم انك اذا تأملت العالم كله الفيته كالمصباح في تركيبه بل كالجسم في نظامه فكلمما كان الشيء أتم تركيبيا وأجمل وضعاً كان أكثر نفعاً ولذلك كان نظام العين لشدة دقته أجمل من نظام السراج في صنعته ولذلك كان نفعه أعم وأهم وما نسبة العين لنفس الانسان الا كنسبة السراج لهذا العالم بل كل سراج في العالم محسوس من الكواكب والمصابيح

فهمو نظير الحواس عند الانسان ولنكل نور يناسبه فالكون المحسوس نوره محسوس  
 وجسم الانسان لما كان مداره على الروح كان نوره أقرب لها وهو نور العين  
 فقونه الله نور السموات والأرض إشارة لنظام العالم وقونه مثل نوره إشارة الى  
 روح الانسان في جسمه موازنا بينها وبين المصباح وتركيبه

فالموازنة بين العالم والانسان والمصباح والعين أو الروح صحيحة فأيهما وزن بالأخر  
 صح اعتباره فاذا وازنا بين روح الانسان والمصباح وجدنا ان جسمه كالزجاجة وروحه  
 كالمصباح وكما ان للمصباح زيتا يتقد منه فكذلك الروح لها مادة وهو الدم المنبث  
 من القلب المبخر لخلاصته وهي الحرارة الغريزية

وكما أن السراج يضيء البيت فكذلك الروح تضيء الحواس كلها وكما أنه اذا  
 أحيل بين السراج وبين ركن من أركان البيت أظلم فكذلك الروح متى أحيل بينها  
 وبين حاسة من الحواس بحصول عائق في أعصاب الحس أو مواد الاحساس لم تحس  
 تلك الحاسة وأظلمت وكما أن المصباح ينطفئ بأحد أمرين إما بوارد عليه من خارج  
 وإما بانقطاع مادة إيقاده كالمواد الدهنية أو روح الكهرباء، فهكذا الانسان يكون موته  
 إما بقتل وإما بنفاد مادة الحياة وكما أن للسراج مادة يتقد فيها أيا كانت تلك المادة  
 فهكذا الروح لها مادة وهي خلاصة الدم السارية في جميع العروق واعلم أن هذه المواد  
 للمشاهدة بينها تفاوت عظيم جداً فالمادة الطينية لا تقبل ناراً البتة فاذا أشرفت إلى أن  
 صارت نباتاً قبلت النار المحسوسة فاذا ارتقت الى الحيوانية كانت نارها أضوء كالشموع  
 التي نارها حسية وظهرت فيها الروح الحيوانية في جسم الحيوان فاذا ارتقت الى الانسانية  
 صارت الروح أجمل وجاء لها العقل وارتقت الى عالم الجمال وهذا هو نهاية الإبداع  
 فهذه هي سنة الكون وهي الترقى ( ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله  
 تحويلاً ) ( سنة الله في الكون الترقى دائماً )

فوازن بين هذه السلسلة الأخذة من الجماد الميت الى الروح العاقلة في الانسان

وبين نحو الطفل ولادة فصبا فشباب فكهولة فشيخوخة فموت وهكذا المولدات من جماد فنبات فحيوان فانسان فعقل راق وهكذا الأمة تبدو كالطفل فتشب فتصير في الكهولة فالشيخوخة فالموت وهكذا الليل والنهار في زيادتهما وتقصهما في السنة كلها وهكذا في تقسهما فترى الشمس تأخذ في الارتفاع حتى تصل الى كبد السماء ثم ترجع كأحوال الانسان بل العالم كله على هذه السنة ( ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت وكل شيء عندنا بقدر عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال )

### ابداع العقل والمنطق والخط

علمت حواس الانسان وقواه الباطنة ورأيت أنها جمعت تفاصيل ما لدينا من كل ما نشاهد من العالم بصوره ومعقولاته فتأمل كيف عمل العقل في السكيف عملا جعله لطيفاً ثم ترقى فصار معقولا فلما محسوس مراتب ثلاث صورته الخارجية ثم تطلقه وخروجه عن المادة بصورة في النفس ثم صورته العقلية المتزعة من صور الخيال فما أعجب هذه الحكم وما أبهجها فياليت شعري كيف صار الجماد معقولا وبأى وسيلة أصبحت هذه الاجرام العظيمة كلها في عالم النفس بصورها وأشكالها ثم كيف ترقى فصارت أمورا كالية في العقل وبأى وسيلة ترجع الأمور المعقولة فتصير خيالا إما في النوم ورؤية السكيات في صورة جزئيات وإما باستعمال العقل لاستخراج جزئيات يتصورها الخيال ثم تبرز في الخارج بالجوارح بواسطة الآلات المسوقة بالشوق ثم تأمل كيف برزت صور الخيال والعقل الى الخارج بواسطتين إحداهما الأفعال بواسطة المواد والآلات وثانيتها بواسطة اللسان وآلات النطق بالهواء فيحدث صوت يتشكل بأشكال مختلفة تسمى حروفا تجتمع مع بعضها فتكون كلمات لاحصرها مساوية لما يحدث في الخارج من المركبات العنصرية في أنواع الكائنات الداخلة من الحواس المصورة في الخيال

ولكون الانسان مدنياً بالطبع احتاج الى النطق يبرز ما في ضميره الى ذهن غيره

فكان نسخة العالم كله احضرت أمامه ويختار منه ما يشاء ويعبر عنه ليعرف الآخر ما عنده ثم ان الانسان مع هذا كله تبقى حاجاته غير تامة محتاج الى زيادة تكلمة فانه لا يمكنه أن يكلم من هو بعيد مكانا ولا من في مستقبل الزمان ولا يعرف أخبار الماضين فلماذا كله اقتضت الحكمة الالهية أن يكون الانسان كاتباً لتبقى أفكاره بعده ويحيط بها علماً من أبعد مكان ويدون جميع الأعمال بصور الحروف المكتوبة لأنها أثبتت ولا يمكن انكارها فيها هنا مراتب العقل والخيال واللسان والكتابة فاللسان يحضر صور الحروف وهي دالة على مافي العقل والخيال وهما دالان على ما في الخارج إلا أن الصورة في الكلام أضعف من صورة العقل والخيال لأن الكلام دال وذاتك مدلولان ثم الكتابة دالة على الحروف، ولعمري كم من الفرق بين حروف تكتب وصور الأشياء بنفسها في الخيلة .

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (وأشار الى النطق بقوله) الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (والى الكتابة بقوله) ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ) وقوله ( اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ) . وهنا دور عجيب تنظر الحواس الأمور الخارجية فترصد في دفتر الخيال ويسمى الصورة أيضاً ثم تذهب الى العقل ثم ترجع الى الخيال ثم النطق فالكتابة ثم ترجع الى الحواس من طريقها ولكن صغيرة عن حالها الأول فانها دخلت أول مرة بصورة والآن بدال الصورة فيكون العلم أضعف من المشاهدة ولذلك كان أقل الناس علماً من حرموا النظر في الكون واقتصروا على الكتب يدورون فيها كما يدور الحمار في رحاه ( أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ) فوجود العلوم في الكتب في مرتبة سابعة فافهم

## ضرب مثل لحال النفس مع الجسم

مثل النفس مع الجسم كمثل وزير يدبر أمور رعاياه ويقوم بشؤونهم وهو مع ذلك يتلقى أوامر الملك أو كمثل حاكم مقاطعة من المقاطعات ينظر في أمور الناس ويسمع أمر الوزير وهو أعلى منه فهو بين أعلى يأمره وأسفل يأتمر بأمره فإذا أظهر استعداده لرتبة من هو أعلى رقاها الوزير وبأمر الأمور العليا فهكذا الروح يدبر الجسم ويسعى في تكيفه بالأخلاق ويتكامل هو بالعلوم ليستعد للترقى إلى ما هو أعلى في عالم أجل من هذا

وإذا تأملنا أحوال النفس مع الجسم نرى أنها مع قواها كرب المنزل سكن هو وأسرته فيه فالنفس رب المنزل والقوى أهله وخدمه وحشمه والجسم هو المنزل .  
ومن جهة أخرى نجد أن هناك أعمالا داخلية في الجسم ناتجة من قوى النفس فهناك القوى الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والعاذية والنامية والمولدة والمصورة والحواس الخمس والخيال وقوى الدماغ والاحساس والحركة ولا ريب ان هذه القوى لها اعمال عجيبة داخل الجسم وخارجه وما أشبهه الا بصانع وتلامذته أو مهندس وعماله يعملون جميعا في دار صناعة واحدة

ثم ان هذه الأعمال لا يمكن حصرها وكأن كل قوة من هذه القوى وحدها لكثرة أعمالها وانتشار عمالها معمل مخصوص كثرت عماله كما أوضحناه في ميزان الجواهر فالقوة الجاذبة تراها منبثة في جميع الأعضاء المحتاجة للجذب كالمعدة والحلقوم فتري المعدة تجتذب الغذاء إلى أسفل لا سيما الحلو وهكذا المرىء يحصل فيه جذب للطعام كجذب الرحم لماء الرجل وقس عليها الماسكة فانها تمسك لكل عضو من أعضاء التغذية ما أودع فيه حتى يفرغ من عمله وهكذا أعضاء الجسد كلها تمسك عليها ما يغذيها من الدم فالأول كالمعدة والأثنا عشرى والكبد فكل من هذه الثلاثة تبقى فيه المادة حتى يتم نضجها إلى ان تدفعها الدافعة والثاني كاليد والرجل والعين وغيرها فكل من

هذه الأعضاء إذا جاء إليها بتقدير الحكيم العليم ما يليق لها من الدم للتغذية أمسكه الله عليها حتى يتم بناؤها فله الحكمة البالغة ان في ذلك آيات القوم يعقنون فلكثرة الاعمال وانتشار العمال وتفرق أعضاء الحس والحركة وغيرها في سائر البدن يمكن اعتباره مدينة ذات معامل كثيرة الصناعات منتشرة العمال لا يهدؤن ليلاً ولا نهاراً في أعمالهم

ثم اننا اذا لاحظنا ان النفس وقواها الحاسة والحركة تأمر الجسم فيأتمر وتناهى فينتهى فهو مطيع مسخر مقهور تحت هذا المسلط القاهر القادر وهو ( النفس ) أمكننا تشبيهاً بملك وأعوانه مسلط على مملكة الجسم وأى ملك في العالم أقدر على رعيته من النفس للجسم وأى رعية أطوع للملكها وأخضع لسيدها من الجسم الى النفس وقواها ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم

ثم اذا راقبنا أعمالها نجدها كأنها حارث يحرق أرضاً يخرج له ثمر يناسب الحارث والمحروث فالنفس كالحارث والجسم كالأرض والأعمال كالثمر .

ولما كان نوع الإنسان غير منحصر في عدد بل أفراد منتشرون وهم في أعمالهم يتنافسون وفي أغراضهم يتنازعون أمكن تشبيه النفس بالفارس والجسم بالفرس والحياة بالميدان والناس يتسابقون وقصب السبق هي المعالي فاذا لاحظنا الحياة والموت وغصص الدهر وأعمال الناس واختلافهم والفصل بينهم بالحق وهم لا يظلمون أمكن تشبيه الجسم بمركب والنفس ملاحه والبحر فتن الدنيا والبضاعة المحمولة في السفينة عمل النفس والساحل الموت ومدينة التجار وراءها وفيها الرب الجبار يعطى كلاً من هذه الأنفس ما يليق لها على حسب بضاعتها ان خيراً فخير وان شراً فشر .

وإذا لاحظنا أن نفس الجسد منظم في غاية الحسن والابداع والجمال والبهاء والنفس تقرأ في نقوش ابداعه ومحكم تركيبه شهبانها بصبي يتعلم في مكتبته . ثم نرتقى عن ذلك كله إلى أن النفس تنظر إلى نفسها وقواها فتجد فيها صوراً ونقوشاً وعلوماً فكأنها دفاتر. رصد فيها الصادر والوارد والعالم بأجمعه فكأنها عالمة معلومة وعلومها مختصرات علوم الكون أجمعه ( ان في ذلك آيات لقوم يعقلون ) فانظر كيف

شبهت مع الجسم بمنزل ومعمل ومدينة ومزرعة وميدان ومكتب ودفاتر ان في ذلك  
لذكري لأولى الألباب

## قوى الإنسان كلها ترجع الى نفس واحدة

اعلم أن القوة الغذائية ومدياتها وفروعها من الهاضمة والماسكة ونحوها وما يتفرع  
عنها من النمو بقسطاس مستقيم وتديير محكم من طول وعرض وعمق لكل عضو  
ما يليق به من مقاديره وأنواع غذائه—مقدمة على قوة الاحساس بالحواس الخمس ورئيسها  
الحس المشترك فالحس المشترك تخدمه الحواس الخمسة كما كانت ممدات القوة الغذائية  
خادمة لها وهذا الحس المشترك مقدمة للمخيلة ( الصورة ) وهذه مقدمة للنفس الانسانية  
فاذن هي نفس واحدة لها خدم يشتركون في خدمتها بعضهم فوق بعض فأولها  
الخيلة فالحس المشترك فالغاذية ويقترن بكل قوة من قوى الادراك الثلاثة نزوع الى  
مشتهى أو تقور عنه فيكون للأرادة ستة أنواع ثلاثة منفور عنها وثلاثة مشتاق اليها  
فالحواس الخمس كل منها موكل بعالم من العالم المشاهد فتأتى كل حاسة بنجر عالم من  
العالم كما أوضحناه سابقاً فتشتاق النفس اليه وتنفر عنه كطعام محبوب أو مكروه  
كالتمر والحنظل فتأمل كيف تتسلط القوة النزوعية على أعضاء الحركة فتحررها إما  
إلى طلب وإما إلى هرب وتستعين بالأعضاء الظاهرة في السعى إلى ما أحببت وفي الهرب  
عما كرهت وان كان هناك مانع أثناء السعى أزلناه بأيدينا حتى نصل اليه فهذه كلها  
أعمال الأعضاء الظاهرة فاذا ذقنا هذا الطعام المشتهى حصل شعور النفس وهذا بعينه  
فعل النفس بعد فعل الأعضاء فما أحسته الحواس ينال بفعل الجوارح وفعل النفس  
وهكذا الخيلة تتبعها ارادة إما إلى طلب المتخيل أو الهرب منه وذلك يكون بأحد  
ثلاثة أمور

إما باستخدام الحس المشترك وإما بإحضار الخيال تلك الصورة فلا عمل للجوارح  
من جهة الخيلة قط فاذا اشتاقت إلى إحضار صورة جميل تعرفه بعينه فتارة تستخدم

الحس المشترك وهو يستخدم البصر لينظرها وتارة تحضرها هي بنفسها . وأما الأرادة التابعة للعقل فبالفكر تستنتج الحس والقييح وتستخدم جميع القوى في درء ما كرهت وجلب ما أحببت

وبالجملة فالعقل هو الحاكم على جميع القوى الرئيسية والقوى الأرادية فهي نفس واحدة وكل هذه فروعها وتبع لها

ولاتظن أنها تتمثل بجزء ونحس بالحواس الحس بجزء وتتغذى بجزء بل هي شيء واحد وله أحوال مختلفة كما أن الكاتب يمسك القلم ويكتب ويعدل السطور ويضع النشافة على الورق ويطوى الكتاب فليس لكل عمل من هذه واحد مخصوص وإنما العمل لواحد ولكثرة قواه كثرت أفعاله فهكذا العقل ينظر ويسمع ويشم ويدوق ويلبس ويتخيل ويتغذى ويريد ويعمل ويكرر ويفر وهو واحد في ذاته

### برهان ان النفس وقواها واحدة

ولعلك تقول هذا تمثيل لا برهان عليه فاني لا أقنع إلا بالبراهين واما ضرب الأمثال فكيف يكفي من درس العلوم أقول ان الحكماء برهنوا على هذا براهين وربما أخال ان كثيرا لا يفقهون جلها ولكن لا بد من ذكر اجلي البراهين وأوضحها فصاك يطمنن به قلبك ها أنت ذا تعلم أن طبيعة الأجسام لا تقبل التداخل فالجسم الواحد لا يقبل دخول غيره فيه قط كما هو معلوم من الطبيعة فما لنا نرى كل قوة من قوى الدماغ تسع صوراً لانهاية لها فاذا كانت أجساماً فكيف تسع ما لا يتناهى من صور السموات والأرض وما بينهما ومن القضايا الكلية والجزئية فهذه طبيعة خالفت طبائع الأجسام فليست منها واذن فهي لا تنقسم اذ المنقسم هو الجسم فالنفس أمر بسيط وأيضاً نرى أن القطعة من الشمع مثلاً لا تقبل صورة إلا بعد ذهاب أخرى وهل يمكن أن تكون قطعة الشمع مثلثة ومربعة في آن واحد كلاهما بالنظر القوى التي في الدماغ تقبل علماً وتقبل آخر فأخر إلى ما لانهاية له ومع ذلك لا تمحو الصورة

التأخرة الصورة المتقدمة فلو كانت جسماً لحي السابق بالعلم اللاحق بل العلوم كلها كثر عند النفس تقوى بها على غيرها من العلوم ، أما الأجسام فلا تقبل الأشكالا واحداً ( ان في ذلك لعلبة لاولي الابصار ) أليس ذلك لكون النفس أمراً غير جسم فلا ينقسم إذ لو انقسم لكان جسماً وقد برهننا أنه ليس بجسم فكفناك هذا برهاناً على أن النفس أمر واحد غير جسم وهذه القوى ليست غيرها وإنما هي صفات لها كما قدمنا أيضاً أن المادة أمر مجهول ظهرت صفاته التي عشقتها النفس وسعت لها بقواها

### المادة والنفس

فالمادة كما قدمنا لم يمكن معرفة كنهها والنفس مثلها لكل منهما صفات مختصة به تتلاقى تماشقا فجعل المادة بظواهرها مكتملة للصورة الانسانية ( إن في ذلك لآيات لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ) .

### المادة والنفس والعقل والملائكة

اختلفت الأفكار وتباينت الآراء في الموجودات تبعاً لاختلاف الفطر وفوق كل ذي علم عليم ، فقال قوم ليس في الوجود إلا الله والمادة ، فالمادة هي المصنوع والله عز وجل هو الصانع وأنكروا النفوس والأرواح وقالوا ليس هناك شيء سوى المادة وقالوا أن ما نراه من قدرة الانسان وعلمه وحكمته وما يظهر من غرائب الحيوان فهي قوة جسمية وجميع ما نراه من أفعال الجمادى الطب والكهرباء فمنهم من قال فعل الله ومنهم من قال بالبخت ومنهم من نسبه إلى الطبيعة فاذا سئل عنها عجز عن تفسيرها ثم جاء من بعدهم قوم آخرون وقالوا إننا نشاهد المادة أمامنا ميطمة وجميع أعراضها لاتعطيها قوة بل هي قبلها لاحتراك لها فالمادة وصفاتها ميطمة منفعة فكيف تكون فاعلة في نفسها هذا مما لا يكون

ثم أننا نشاهد بعض الأجسام حلها أمر غريب عنها فحركها وأعطاها الحس .

فسميناه نفساً وهذا الكافة الحيوان بل والنبات فكل ما ينمو سميئنا ما فيه نفساً نباتية وكل ما يتحرك ويحس سميئنا الأمر الذي حل فيه نفساً حيوانية إذ هذه الأفعال والقدرة والادراك ليست من صفات المادة وإنما هي فاعلة والفاعل غير المنفعل فهذا طبعاً أمر ثالث غير المادة والخالق

ثم إننا نرى بعض الحيوان وهو الانسان تختلف أفكارهم وتفاضل قرائحهم بأمر أخرى فقلنا أن هذا التفاضل جاء لها بأمر غريب قاهر للنفوس ومسيطر عليها . ألا ترى أن النفوس مدارها على الشهوة والغضب في الحيوان والانسان ولكن هذا الأمر الغريب يجرها عنها ويأمرها بالاعتدال فسمينا الأمر الوارد على النفس عقلاً فهبنا مادة تسلطت عليها نفس وتسلط عليها عقل حل فيها حلول الصفة في الموصوف فهبنا ثبتت المادة والنفس والعقل

ثم قالوا اننا نرى المادة في السموات والأرض مسخرة كلها جارية بنواميس كلها سائرة على محور النظام والعدل والكمال وقد علمنا أنها من نفسها لاجراك لها فوجب أن يكون لها محرك يقرب منها وبيته وبينها مناسبة لأننا علمنا أن هذا الحكيم الذي دبر الكون ربط الأسباب والمسببات فجعل كل شيء ينابط بما هو أقرب إليه في الشبه ثم الكائنات متشابهة فاذن لا بد للعالم كله من نفس مدبرة له خاضعة تحت إشارة العقل الذي هو فوقها كما أن للانسان عقلاً مسلطاً على نفسه القاهرة لجسده إذ النفس لا تستقل بنفسها في تدبير الأجسام بل هي تستمد من العقل في كل آن فقام هؤلاء نظام الكون كله على الانسان وقالوا أن هناك نفساً مدبرة تتحرك بها العوالم تنصدر الجزئيات وتلقاها عن العقل القاهر فوقها .

وهذا العقل يسميه الشرع اللوح المحفوظ فتتلقى منه النفوس عند الحكاء ( وهم الملائكة عند الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ) الأوامر ويتحرك هذا العالم على نظام عجيب هذا معنى ما يذكره هؤلاء وقالوا أن أول ما خلق الله العقل وهو فيض من نوره تنزل من تلك السبحات العليا وفاض فيضاً بلا زمان ولا مكان إذ كان الله ولم يكن

زمان ولا مكان لما تعلم أنه قبل خلق العقل لم يكن إلا الله فأين الزمان وأين المكان فان المكان يستلزم المادة وهي لم تخلق والزمان لا بد فيه من حركة الافلاك كما هو مقرر لامطلق حركة ثم خلق بعد العقل الهيولا (المادة) بسيطة لا تدرك بالحواس كالأجسام الروحانية ثم أعطاهما الصورة بأن مدها طولاً وعرضاً وعمقاً وصارت كرة عظيمة غازية ألطف من كل ما يرى ثم أفاض الله عليها النفس من العقل فدارت المادة دورات سريعة على مقتضى النواميس التي وضعها مدبرها وألقاها في اللوح المحفوظ ومنه فاضت على النفس الكلية (الملك) المسلط على المادة فصارت كرات كثيرة دائرات وكل كرة خلقت فيها نفوس لا يعلمها إلا الله وأودعت فيها نفوس كلية تارة وجزئية أخرى (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ) ومن هذه النفوس الجزئية الأنفس الحيوانية والنباتية والانسانية التي فاض عليها من اللوح المحفوظ نور ألهما تقواها ومن نفوسها فيض ألهما فجورها . هذا زبدة ما قاله هؤلاء الناظرون مع رعاية العلوم الحاضرة

وأنت تعلم أيها الأرخ المطلاع على كتابي هذا أنني لأقول هذا من باب أنه هو الطريقة التي خلق عليها العالم قطعاً لا وإنما هي التي أخذها الناس بفراستهم من ظواهر السكون مع تأملهم في الشرائع السماوية فيجعل كأنه فرض تحمل به المسألة حلاً وقتياً وإلا فبدأ خلق العالم أمر مجهول بالكلية وإنما هذا القول أقرب الأقوال إلى الحقيقة بحسب ما بلغه علمنا إذ من الناس من يقول العالم مركب من أجزاء لا تتجزأ والآخر يزيد في الطين بلة ويقول مركب من أجزاء تتجزأ ولا تخص عنصراً مخصوصاً من العناصر المعلومة وآخرون أفرطوا فقالوا هذه العناصر كلها أصلية فأصل العالم مركب منها وزاد قوم ضلالاً فقالوا يقدم الافلاك وزاد آخرون جهلاً فقالوا يقدم المادة وهذا كله خبط عشواء لا دليل عليه بل أدحضه كله الاكتشافات الحديثة والعلوم الجديدة التي تقوضت تلك الترهات ومن هذا تفهم الحكمة المشهورة

أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ثم قاله أدير فأدير ثم قال وعزني

وجلالى ما خلقت خلقاً هو أعز على منك بك آخذ وبك أعطى وبك أئيب  
وبك أعاقب

وما نتيجة المادة إلا النفوس الحالة فيها الفائضة من العقل الذى جعله الله محيطاً  
بها . فتأمل كيف ترفت المادة بظهور أثر النفس فيها من نبات إلى حيوان إلى انسان  
وإن إلى ربك المنتهى فإذا تكمل الانسان بالعقل يرجع إلى الملائكة الأعلى فالمبدأ هناك  
وهو العقل فأصل المبدأ صار هنا منتهى ولذلك لما كان صلى الله عليه وسلم هو نهاية  
إبداع النوع الانسانى استعد لفيضان النور عليه من الملائكة وصار يترقى إلى ما لا يتناهى  
ومن هذا نفهم كيف احتاج الكون إلى ملائكة فانك علمت أن المادة لا تحرك لها  
فلا بد من ملائكة فيها كلها وإلا فما الذى حرك هذه انكواكب ولا بد من ملائكة  
أيضاً فوقهم ليعطوهم الأوامر بالنظام وإلا فما هذا الحساب البديع لا يتغير على مدى  
الزمان وعمالك تقول أن الله هو الذى أدارها فتقول لا ينكر جاهل فضلاً عن عالم ذلك ،  
أليست الملائكة من أفعال الله وإذا كانت نفوسنا ونفوس البهائم هى المحركة لهذه  
الأجسام أفلا يعد الله محرراً لنا فهكذا تحريك الكون كله يحتاج إلى ما احتاج إليه  
الجزء الصغير من نفس وعقل ويكون الله المحرك بالضرورة وهذا القول مطابق لما ورد  
فى الشرائع الإلهية من ذكر الملائكة وإنيهم منوط بهم أمر العالم كله لا يعصون الله  
ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ولذلك ترى نظامهم على غاية الاتقان .

واعلم أن الملائكة خلق من خلق الله تعالى يحار العقل فيه فإن سألت عنهم  
فاعرف عقابك ونفسك أولاً وتأمل أنك إبداع غريب يعص عينيه فيرى ملكاً  
عظيماً وكل ما شاهدته فى الخارج موجود فيه فإن فهمت هذا فارجع إلى الملائكة  
وباليت شعرى إذا عجزنا عن معرفة نفوسنا فكيف نعرف ذلك العالم العظيم وهم  
الملائكة وكيف نعرف مدير الكون كله أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ  
العالمين

## ( لطيفه )

كل مصنوع للانسان محتاج الى مادة وصورة وحركة وآلة وزمان ومكان فيحتاج  
الكاتب الى قلم وحركة يد والى حبر وورق ثم جعلهما صورة واحدة وكل هذا في زمان  
ومكان فالمادة الحبر والورق او الصورة هي الحاصلة من اجتماعهما والحركة معروفة وقت  
الكتابة والقلم والآلة والزمان والمكان معروفات فهذه ستة أشياء ثم المصنوعات الالهية  
كالنبات والحيوان والانسان تحتاج لأربعة المادة والصورة والزمان والمكان ولا حركة  
ولا آلة كالجنين في الرحم فانك لا ترى فيه آلة رسم ولا حركة من الراسم وانما يرسم  
جل جلاله نقشاً بديعاً تحار فيه العقلاء ولا ترى آلة رسم ولا حركة تظهر ( إن في ذلك  
لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ )

ثم الكون المحسوس كله وهو الجسم العمومي المكون من افلاك دائرة سائرة  
تكون بمادة وصورة ولكن لا زمان ولا مكان ولا حركة ولا آلة إذ الزمان لا بد  
فيه من حركة فلك وهناك لا افلاك والمكان معلوم وليس هناك سوى هذا الجسم  
وغيره عدم فكيف يكون له مكان ولعمري لقد جهل قوم بمثل هذا الكلام وفهموا  
منه انه لا أول له وهو خطأ محض بل كان الله ولا زمان معه إذ الزمان بحركة الافلاك  
فاذا لم يكن فلك فلا زمان فكيف اذا لم تكن مادة أصلاً

ثم الملائكة المدبرة لهذا النظام كله لا مادة لها ولا صورة ولا حركة ولا آلة  
ولا زمان ولا مكان فتأمل هذا الترتيب العجيب فالموجود اما الأي يحتاج لموجد أصلاً  
وهو الله تعالى واما ان يحتاج لموجد بلا آلة وعم الملائكة أوسع مادة وصورة وهو الجسم  
أو معهما ومع الزمان والمكان فهي أنواع المولدات أو مع هذه الأربعة والحركة والآلة  
وهي الصناعات الانسانية

## آراء الناس في النفس

آراء العقلاء ونتائج أبحاثهم تابعة طبعاً لما يغلب على عقولهم وما تصل اليه معارفهم وهذا هو السر في عدم الاتفاق وكثرة الاختلاف في كل مسألة وأعظمها اختلاف وأكثرها تشعباً نفس هذا الانسان ولكل وجهة هو موليا وقد بلغت الأقوال فيها قريباً من المائة فمن قائل انها الهواء إذ باقطاعه تنقطع الحياة ومن قائل انها الدم إذ بوقوف حركته تقف الحياة وهكذا من الأقوال الدالة على نظر لجهة دون جهة وأهم بالأقوال ثلاثة فقال قوم انما النفس هو هذا الجسد إذ كل ما عندنا من القوى النفسية نابعة من هذا الجسم وعنه تفرعت ألا ترى انه اذا تغير المزاج أو مرض الجسم أو انقطعت عنه مادة الغذاء أو جرح أو انكسر عضو من اعضاءه يذهل العقل وتضعف القوى فلا علوم ولا معارف على ات الشيخوخة تذهب بالفكر وترجع العاقل الكبير طفلاً صغيراً

وقال قوم ضد الأولين ان النفس هي قوة مسلطة على الجسم ذات قوى تتصرف فيه تصرف الملك في الرعية ألا ترى ان الجسم ان هو الاجاد تحركه تلك القوة المدبرة فاذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله واعتبر حال الغضبان فانظر كيف تحمر عيناه ويقبليل لسانه وتضطرب حركاته وهكذا السرور والعلم والجهل ولعمرك كم من الفرق بين عالم عظيم وجاهل فانظر كيف أثرت المعارف والأخلاق على الجسم وما هذه كلها الا من تلك القوة المدبرة وتأمل انها اذا خرجت من الجسم بالموت أصبح ولا حراك له بل يكون جيفة لا قيمة لها ويخرجها أعز أصحابه وخلانته ولو كانت هي النفس لأبقوها في أما كنهم فقد علموا ان النفس هي التي خرجت من عندهم وتركت فضلاتها فأخرجوها ونظر آخرون في قول سابقينهم فقالوا اننا نرى ان كلا من الروح والجسم يؤثر على الآخر فالروح بما لها من السلطان على الجسم تؤثر فيه

صلاًحاً وطلاحاً وصحة ومرضاً وهكدا الجسم والذى نستنتجه من ذلك ان الروح وجدت فيه لتتربى كما يتربى الحب فى النبات والثمر فى الشجر والفرخ فى البيضة والجنين فى الرحم فلا تزال تنمو فيه الى أجل مسمى

وكا أن المقصود من النبات الحب ومن الشجر الثمر ومن البيضة الفرخ فكذلك المقصود من هذا الجسم هى تلك الروح وكا أن البيضة تضعف إذا كبر الفرخ وقوى . والنبات يصغر وينحى إذا اشتد الحب فكذلك الجسم يأخذ فى الضعف إذا قويت الروح وأرادت الخروج وكا أن كلا من الفرخ والحب يبقى بعد خلاصه من البيضة والزرع فكذلك الروح باقية بعد هلاك هذا الجسم وكا أن الفرخ والنبات والجنين فى بطن الأم تكون على حسب نوع البيضة والنبات ومزاج الأم فكذلك الروح بعد الموت تكسب الصفات التى تناسب ما كانت تكادها مدة الحياة وكا أن الحب بعد خلاصه من الثبن قد يكون غذاء للنوع الأرقى وهو الانسان وبعضه يكون غذاء للنوع الأدنى وهو الحيوان وبعضه مشترك بينهما وبالجملة يكون أنواعا كثيرة فهكدا الأرواح تكون درجات متفاوتة على حسب أنواع التربية التى ترباها الانسان فى هذه النشأة فكل يترقى فيما غلب عليه فمنهم جلساء الملائكة ومنهم من هو أدنى من ذلك إلى أن يبلغ درجة سجين وكا أن الحب إذا خالص من الثبن وثمر من الشجر وهو لم يبلغ أشده يكون ضعيف الفائدة أوعديهما فكذلك النفس إذا خرجت من الدنيا وهى لم يكمل تهذيبها تكون فى عالم الآخرة أبعد عن اللذات ناقصة عرضة للألام والدم والسخط ألا ترى أن لكل موجود فاعلا ومادة وصورة وغاية كما هو مشاهد وفاعل الانسان معلوم ومادته وصورته مفهومتان ولكن ما غايته مع أنه أجمع الحكماء على أنه ليس فى الكون شىء بلا ثمرة فلم يبقى الانسان بلا ثمرة وحده وهذا القول الأخير هو الموافق لسنن الكون وقوانين الحكمة وسير هذا النظام والموافق للقرآن قال تعالى إنما الحياة الدنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثُرٌ فى الأموال والأولادِ كمثل غيثٍ أعجبَ الكفارَ نباتُهُ ثم يهيجُ فتراه مُصْفراً ثم يكون حطاماً وفى الآخرة

عذابٌ شديدٌ ومَغْفَرَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْغُرُورِ سَابِقُوا  
إِلَى مَغْفَرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا  
بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ )

فتأمل كيف أشار القرآن الى تنوع الانسان كتتنوع النبات فالحق والحق أقول  
إن القرآن رمز في غضون أمثاله الى علوم الحكمة ووكلمها إلى العقول فيها أنت ذا علمت  
أن القول الأخير من كلام الحكماء هو الأوفق لنواميس الكون وألصق بالبراهين  
العقلية وإن أحسن مثال له هو النبات فانظر كيف ذكره في القرآن مثالا أبرزته تلك  
التشبيهات التي رأيتها وغيرها وقال في آية أخرى ( الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل  
من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم  
القدير ) وقال في آية أخرى ( إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط  
به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها  
وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاهم أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن  
لم نفن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون )

فهذا ضرب مثل للحياة على سطح الكرة الأرضية وما قبله تصريح بحال الشخص  
الواحد وما قبله ضرب مثل لحالته فضرب المثل في حال الشخص الواحد والأهم  
الانسانية بالنبات لما علمت من الحكم التدرجية ضمنه ولم يقتصر جل جلاله على ضرب  
هنا المثل وعطا بل جعله في موضع آخر برهاناً مستدلاً بعالم النبات وغيره على البعث  
رمزاً للبرهان الأخير الذي هو نتيجة إبحاث الحكماء، فقال . ( نحن خلقناكم فلولا  
تصدقون أفرايم ما تُمنون أنتم مخلقونة الآيات وقوله أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن  
المنشئون ) فاستدل أولاً بالنطفة في الرحم وبالنبات وخروج الثمر منه وبالماء أن لها غاية  
وهكذا النار وما يستفاد منها فكأنه يقول هل خلق الجنين في البطن إلا للترقي الى  
عالم أرقى وهي الحياة ويكون ترقيه على حسب المزاج الذي كان عليه في بطن أمه أليس  
النبات جعل لغاية وهو الثمر ألم يكن نزول الماء لغاية أليست النار جعلت لمنافع الناس والاعتبار مع

أنها في الأحجار والأشجار وكل شيء، تكون هذه كلها وهي الأجنة في البطون والماء في السحاب والنبات والشجر والنار لمنافع تنتج عنها ويكون وجودكم أنتم بلا ثمرة إلا الشقاء والآلام ثم تعدمون من الوجود بلا ثمرة مع أنكم أنتم أفضل الجميع بل هذه ما خلقت إلا لكم وإذا كان الأقص الخلق له غاية أفلا تكونون أنتم أولى بأن تكون لكم (ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) على أن الحكمة العامة والناموس الذي وصفناه في الكون يقتضي الترقى أيفصل العالم إلى النقطة العليا وهو الإنسان ويقف الترقى (فلا أقسم بمواقع النجوم وأنه لقسّم لو تعلمون عظيم إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين)

أقدم هنا بعد تلك العبارات بالنجوم ومواقعها في مدارتها على عظم أمر القرآن فذكر النجوم هنا لينبه الفكر إلى أنها أيضا لها فوائد وهي تلك المذكورات من لمولدات إذ كل ما ذكر قبلها ناتج عن دورانها في مواقعها وهذا كله في ضمن عجائب القرآن التي لا تعرف إلا بدقة النظر والبحث في علوم الحكمة مع كثرة الاطلاع ثم ذكر بعدها أن الروح خفية لا تظهر عند خروجها وأفاد أنه أقرب إلى الميت من الحاضرين والناس لا يبصرون، ثم ذكر أنها ذات درجات عليا وسفلى ووسطى على حسب ما يكون الجنين في الرحم ويخرج إلى الدنيا والحب والثمر فتأمل كيف كانت أدلة القرآن هي نهاية الحكمة فتارة تذكر تلك التمثيلات على أنها مواعظ وتارة أخرى على أنها براهين قاطعة (إن في ذلك لآيات لأولى النهى) ومما قاله في الوعظ (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقننا) ومما قاله في الاستدلال في سورة يس (قل يحيبها الذي أنشأها أول مرة إلى قوله، فإذا أنتم منه توقدون) فتأمل كيف مثل بالثمر والنار إشارة إلى أن الروح تبقى بعد الموت كبقاء النار بعد الشجر وإنما خلاصته والقصد الإشارة إلى البقاء بعد الموت ثم يلبسها جلايب الأبدان عند القيامة وبيعها

## عموم الوحدة في الموجودات

إذا تأملت جميع نظمات هذا الكون رأيت الوحدة سارية فيها على غاية من الأحكام ولولاها لم يصح لها وجود ولم يكن لهذا النظام فائدة فلا تكاد ترى كوكباً في نظام الكواكب إلا وهو جار على وحدة مخصوصة من حيث السير على نهج الصراط السوى (إن ربي على صراطٍ مستقيم) وجميع الكواكب لها وحدة مخصوصة في الاتجاه والضوء وأن مداراتها اقطاع ناقصة فلها نظام يجمعها

وهكذا النبات اشترك كاه في وحدة تجمعه وهي النمو والتوالد التابعان للنفس النباتية فنفس أنواع النبات والشجر وإن اختلفت فوجهتها واحدة وهي النمو والتوالد والسعي في المصالح على حسب مبلغ ما أعطيت من القوى حتى إنك ترى العنب يلف خيوطه على عرشه الذي ينصبه الناس له كأنه يعلم أن ذلك هو الذي يقيه من التشتت وترى أوراق كل نبات تحذونهاجاً واحداً وهذا كله سير الوحدة وهكذا النفوس الحيوانية فكل نفس من هذه النفوس إنما وضعت في هذه الأجسام ليتم اتحاد العناصر والقوى وتعيش زماناً ما ثم تهدم فظهر من هذا أن كل شيء اعتنى به أشد اعتناء فإن له نفساً تجمعه وتديره لتضم شعثه ويبقى إلى أجل مسمى وإذا كانت هذه الحيوانات الصغيرة بل والنباتات لها نفوس قبلاً ولي يكون هذا النظام وكواكبه لها مدبرات تديرها كما تدير أجسام الحيوانات وهي السماء ملائكة فإن قال الطبيعي هي الجاذبية فتقول له صدقت ولكن الجاذبية عبارة عن ظواهر ذلك السر العجيب فياليت شعري هل دبرت الجاذبية الميتة ذلك الحساب وعرفت ما يترتب عليه من الملوك والدول وأنواع المولدات وكيف يحوط الجاهل حياة العالم وكيف تمسك الجاذبية الجاهلة ما لا يتناهى من النجوم عدا فلا تتلافى يوماً ما

وامرئى أن مثل علماء الفلك في هذه الظواهر كمثل علماء الطب فكما أن الطبيب

لا بحث له إلا عن الروح الحيوانية التي منشؤها الدم ولا خبرة له في الروح العليا التي تعقل وتعرف الهندسة والحساب والسياسة ونظام الأمم فهكذا عالم الفلك لا يعرف إلا ظواهر سير الأجرام الفلكية فيقول إن هنا جذباً بينها فدارت دورات لانهاية لها بالحركة الطبيعية ولم يدر أن الحركة كيف يخرج من جهلها علم وكيف كانت بشقائها تصلح العالم وباللجب لهذه الحركة الغريبة التي دبرت أمر الحيوان والنبات وجعلت الكل يرتبط ببعضه ارتباطاً تاماً وبناء عليه قال الحكماء إن هذه الحركات في الأفلاك لها عالم يحفظها كنفوسنا عبروا عنه بالعقول وعبر عنه علماء الشريعة باللائكة وإذا كانت كل جملة من هذا العالم لها قوة تدبرها فالعالم كله جملة واحدة كذلك لما نشاهده أنه كله يتعاون كتعاون الجسد وكل كوكب ينفع بقية الكواكب نفعاً خاصاً فقد تحقق أن الكواكب بالنسبة لمجموع العالم كأنها أعضاء جسد واحد فإما هو ذا القمر يستمد من الشمس ويضيء الهواء ويتمزج نوره بأنواع المولدات وكل كوكب فله في الأرض تأثير خاص وجذب يؤثر على حركتها إذن فلا بد أن يكون لهذا العالم كله مدير واحد ترتبط به جميع هذه المديرات وتستمد منه وهو مدير هذا الكون وحده

واعلم أننا ذكرنا فوائد في ميزان الجوهر تناسب هذا المقام ونقلنا هناك كلام العلامة فيليكس لامرون الفرنسي في الجاذبية وقوله أنه يعلم منها الفعل لا السبب فراجعه هناك فيالله الوحدة وفعلها فأشرف شيء في هذا العالم الوحدة بها تم النظام وكلما كان الشيء أتم وحدة وأجل صنفاً كان أتم تركيباً وأعلى شأنًا وإلى هنا نشرع في ذكر نظام الأمم ولا سيما أمة الاسلام مطابقيين بينها وبين نظام الكون على حسب ما قدمناه وكيف يجب أن تكون وحدتها مطابقة لوحدة النظام الطبيعي فنقول .